الفصل الأول

النظم في الدولة الإسلامية

الخلافة الإسلامية - الجيش الإسلامي - الأسطول البحري الإسلامي - السياسة والإدارة في الدولة الإسلامية - تدوين الدواوين في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه - تعريب الدواوين والسكة في خلافة عبدالملك بن مروان وتطورها بعد ذلك - الإمارة على البلاد (حكام الأقاليم) - القضاء - الكتابة وديوان الرسائل في الدولة الإسلامية - الوزارة - الحجابة - البريد - الحسبة - الشرطه - نظام الأسرة ودور المرأة في الجهاد وخدمة الدولة الإسلامية - حقوق الإنسان والرق في الإسلام - النظام المالي في الإسلام.

obeikandl.com

obeikandl.com

الخلافة الإسلامية

عرَّفها ابن خلدون بأنها «حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعي في مصالحهم الأخروية والدنيوية الراجعة إليها»[1]، وعرفها الماوردي في الأحكام السلطانية بأنها: خلافة الرسول ﷺ في حراسة الدين وسياسة الدنيا[2].

أسماءُ من يتقلدها:

١- خليفة: لكونه يخلف النبي ﷺ في أمته فيقال: خليفة على الإطلاق.

٢- خليفة رسول الله: وقد أطلقت على أبي بكر الصديق رضي الله عنه لكونه أول خليفة بعد الرسول ﷺ.

٣- خليفة الله: أجازه البعض لعموم قوله تعالى: ﴿وإِذْ قَالَ رَبُّك للملائكَةِ إِني جَاعِلٌ في الأرضِ خليفةَ...﴾[3]. ولم يجزه آخرون؛ لأن الخلافة في حق الغائب، أما الحاضر فلا[4]؛ لذلك أنكر الخليفة أبو بكر هذه التسمية عليه إذ جاء عنه «أنا لست خليفة الله ولكني خليفة رسول الله ﷺ».

٤- الإمام: فالخلافة هي الإمامة الكبرى[5]، أما كونه إماماً فتشبيهاً له بإمامة الصلاة في اتباعة والاقتداء به، ثم أصبحت هذه التسمية خاصة بالشيعة،

---

(١) المقدمة/ ١٩١.
(٢) الأحكام السلطانية/ ٣.
(٣) سورة البقرة/ الآية ٣٠.
(٤) ابن خلدون، المقدمة/ ١٩١.
(٥) نفسه ١٩١.

فيسمون الذين يتقلدونها الأئمة[1] وهي في نظرهم خاصة بعلي وبنيه، ولهم فيها تفسيراتهم وتأويلاتهم الفاسدة التي لا يقرها الشرع والعقل.

٥- أمير المؤمنين: وأول من تسمى بهذه التسمية عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وقيل: إن أول من أطْلَقَ هذه التسمية عليه هو عبدالله بن جحش، وقيل عمرو ابن العاص أو المغيرة بن شعبة، فقبلها عمر واستحسنها الصحابة رضوان الله عليهم جميعاً.

وقيل: إنه جاء بريد من العراق أثناء الفتوحات الإسلامية وكان عمر رضي الله عنه كثيراً ما يخرج من المدينة لانتظار أخبار العراق، فجاء حامل البريد مسرعاً إلى المدينة وعمر يجري خلفه يسأله عن العراق والرجل لا يعرف أنه الخليفة، فدخل حامل البريد مدينة رسول الله ﷺ وهو يقول: أين أمير المؤمنين، فاستحسن الناس ذلك واستمروا عليه[2]. وكان الخليفة عمر يكتب كتبه إلى قادة الفتح مبتدئاً باسمه بهذه التسمية[3].

حكمها: واجب بإجماع الأمة كما يقول الماوردي: «وعقدها واجب بالإجماع»[4].

يقول ابن خلدون: «إن نصب الإمام واجب، قد عرف وجوبه بالشرع بإجماع الصحابة والتابعين؛ لأن أصحاب رسول الله ﷺ عند وفاته بادروا إلى

(١) والأئمة عند الاثني عشرية اثنا عشر إماماً آخرهم محمد بن الحسن المنتظر (وقد اختفى كما يقولون سنة ٢٦٠هـ) وهم: (علي بن أبي طالب، ت٤٠هـ) (الحسن بن علي، ت٥٠هـ) (الحسين بن علي، ت ٦١هـ) (علي زين العابدين بن الحسين، ت٩٤هـ)، (محمد الباقر بن علي زين العابدين، ت ١١٣هـ)، (جعفر بن محمد الصادق، ت١٤٨هـ)، (علي بن موسى الرضا، ت٢٠٢هـ) (محمد بن علي الجواد، ت٢٢٠هـ)، (علي بن محمد الهادي، ت٢٥٤هـ)، (الحسن بن علي العسكري، ت ٢٦٠هـ)، (محمد بن الحسن المنتظر، ت٢٦٠هـ).

(٢) ابن خلدون، المقدمة/ ٢٧٧.

(٣) محمد حميد الله، الوثائق السياسية ٤٢٧-٤٢٩.

(٤) الأحكام السلطانية/ ٣.

بيعـــة أبي بكر رضي الله عنه وتسليم النظر إليه في أمرهم، وكذا في كل عصر بعد ذلك، ولم يترك الناس فوضى في عصر من الأعصار، واستقر ذلك إجماعاً دالاً على وجوب نصب الإمام»[1].

ولم يرض الصحابة رضوان الله عليهم بعد وفاة الرسول ﷺ أن يظلوا دون خليفة، فوقع اختيارهم بالإجماع على أبي بكر الصديق؛ ليكون أول خليفة للمسلمين، وأوجبوا ذلك بالضرورة؛ لاستحالة أن تستقيم الحياة دون إمام وخوفاً من التنازع.

وقد شذ الخوارج والمعتزلة، فقالوا بعدم وجوب نصب الخليفة لا بالعقل ولا بالشرع، وهذا القول فاسد بالضرورة لمخالفته واقع ما أجمع عليه الصحابة والتابعون وتابعوهم بعد ذلك في الدولة الإسلامية. قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّها الذينَ آمَنُوا أطيعُوا اللهَ وأَطيعُوا الرسولَ وأُولي الأَمرِ منْكُم، فإنْ تنازَعْتُم في شَيءٍ فَرُدُوه إلى اللهِ والرسولِ إنْ كنتُم تُؤْمِنُونَ باللهِ واليومِ الآخِرِ ذَلِكَ خيرٌ وأَحْسَنُ تأْويلاً**﴾[2].

واجب الخليفة وحقه على الأمة:

طاعته لقوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّها الذينَ آمَنُوا أَطيعُوا اللهَ وأَطيعُوا الرسولَ وأُولي الأَمرِ منْكُم...**﴾[3] وقوله ﷺ في حديث عن أم الحصين قالت: حججت مع رسول الله ﷺ حجة الوداع قالت: فقال رسول الله ﷺ قولاً كثيراً، ثم سمعته يقول: إن أمِّر عليكم عبد مجدَّع (أسود) يقودكم بكتاب الله تعالى فاسمعوا له وأطيعوا[4].

---

(١) ابن خلدون، المقدمة/ ١٩١.
(٢) سورة النساء/ الآية٥٩.
(٣) سورة النساء/ الآية ٥٩.
(٤) صحيح مسلم، المجلد السادس/ ١٥.

واجب الأمة وحقها على الخليفة:

حماية الدين بالدفاع عنه وتنفيذ أحكامه، وحماية البلاد الإسلامية بالاستعداد لذلك بإعداد العدة وتجهيز الجيوش وتحصين الثغور ومواصلة الجهاد لإعزاز دين الله، وتأمين وصوله إلى كافة الناس، وتأمين الحماية لأهل الذمة الذين يعيشون في الدولة الإسلامية، وجباية الصدقات وتوزيعها على مستحقيها، ومباشرة أعماله بنفسه لتأمين سلامة الجماعة الإسلامية، واختيار عمال الولايات الإسلامية، وتتبع أعمالهم لضمان إقامة العدل والرخاء بين أفراد الأمة الإسلامية[1].

شروط الخلافة:

اتفق الفقهاء على أمور يجب توفرها فيمن يقع عليه الاختيار للخلافة وهي: العدالة الجامعة حتى يقود رعيته إلى العدل، والعلم الذي يتوصل به إلى علم الأحكام، وسلامة الحواس والأعضاء مما يؤثر في الرأي والعمل مثل: السمع والبصر واللسان؛ ليصح معها مباشرة عمله، وسرعة النهوض والشجاعة ليتمكن من حماية الأمة ومجاهدة الأعداء ودرء المخاطر عن أرض المسلمين[2].

واختلف العلماء في أمور أخرى منها: اشتراط النسب القرشي، فيرى فريق أن القرشية شرط من شروط الخلافة، واحتج هؤلاء بحديث «**الأئمة من قريش**»، عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**لايزال هذا الأمر**

(١) الماوردي، الأحكام السلطانية/ ١٥ -١٦ .
(٢) الماوردي، الأحكام السلطانية/ ٦ .
ابن خلدون، المقدمة/ ١٩٣ .

في قريش ما بقي من الناس اثنان»[1] وقال ﷺ في حديث عن أبي هريرة رضي الله عنه: «**الناس تبع لقريش في هذا الشأن مسلمهم لمسلمهم وكافرهم لكافرهم**»[2].

وهو ما احتج به المهاجرون في سقيفة بني ساعدة لاختيار خليفة للمسلمين، فوقع الاختيار على أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وسكت الأنصار عن قناعة بأن الخلافة ليست لهم، وذكّرهم أبوبكر بقول الرسول ﷺ عن أنس رضي الله عنه قال: «**إن الأنصار كرشي وعيبتي** (جماعتي وخاصتي التي أعتمد عليها) **وإن الناس سيكثرون ويقلون فاقبلوا من محسنهم واعفوا عن مسيئهم**»[3] فلو كانت الخلافة فيهم لما أوصى الرسول ﷺ المهاجرين بهم.

وقد فسر أنصار هذا الرأي بأن المقصود من القرشية هي القوة والغلبة التي تضمن إقامة الدولة، وتضمن الأمن والحماية للرعية، فتحفظها من الفوضى والمنازعة.

وفسرها ابن خلدون بذلك قائلاً: وكانت قريش عصبة مضر وأصلهم، وأهل الغلب منهم، ولهم الكثرة والعصبية والشرف، وكان سائر العرب يعترفون لهم بذلك ويستكينون لغلبهم، فلو وقع الأمر في سواهم لتوقع افتراق الكلمة بمخالفتهم وعدم انقيادهم، والشارع حريص على اجتماع الأمة ورفض التنازع والشتات، وتستطيع العصبية سوق الناس بعصا الغلب[4].

ويرى فريق آخر بعدم اشتراط القرشية، وجعلها هؤلاء حقاً لجميع المسلمين؛ محتجين بحديث الرسول ﷺ عن طاعة العبد الأسود إذا تولى

(١) صحيح مسلم، المجلد٦ / ٣.
(٢) نفسه/ ٢.
(٣) صحيح مسلم، المجلد٧/ ١٧٤.
(٤) المقدمة/ ١٩٥ -١٩٦.

أمر المسلمين[1] وقول عمر رضي الله عنه: «لو كان سالم مولى حذيفة حياً لاستخلفته»، ويمكن التوفيق بين حجج الفريق الثاني مع حجة الفريق الأول بأن أصل الخلافة في قريش، فعندهم الكعبة وقد دانت لهم العرب قبل الإسلام، ومنهم الرسول ﷺ وهم السابقون الأولون إلى الإسلام، ولكن لو حالت الظروف دون تحقق هذا الشرط بسبب الغلبة جازت الخلافة بغير قريش لصيانة الأمة من التنازع والفرقة.

ويرى فريق ثالث تخصيص الخلافة في أقرب المقربين من الرسول ﷺ؛ فجعلوها لعلي وأبنائه وذريته، وأطلقوا عليهم الأئمة وعلى كل فرد منهم إمام.

وليس لهذا التخصيص دليل من القرآن الكريم أو السنة النبوية، إذ إن القرآن ترك أمر الخلافة شورى بين المسلمين، ولم يحدد الرسول ﷺ أحداً من بعده للخلافة، ولو وجد الصحابة رضوان الله عليهم نصاً من القرآن أو السنة لأحد من الناس لما اجتمعوا في سقيفة بني ساعدة، ولما جرى ما جرى فيها لاختيار أحد من الصحابة ووقع الاختيار على أبي بكر رضي الله عنه.

ومن الأدلة على أن الرسول ﷺ لم يستخلف أحداً ما رواه البخاري عن عبدالله بن عباس قوله: «لما اشتد بالنبي ﷺ مرضه الذي مات فيه قال: **إيتوني بدواة وقرطاس أكتب لكم كتاباً لا تضلوا بعدي**. فقال عمر رضي الله عنه: إن رسول الله ﷺ قد غلبه الوجع، حسبنا كتاب الله. وكثر اللغط. فقال النبي ﷺ: «**قوموا عني لا ينبغي عندي التنازع**» قال ابن عباس: الرزية كل الرزية ما حال بيننا وبين كتاب رسول الله ﷺ، وبايع علي بن أبي طالب أبا بكر وعمر

(١) انظر الحديث، ص١٧.

وعثمان بن عفان، ولم يقل إن الرسول ﷺ أوصى له من دون سائر الصحابة، وهو القائل: «فإني أكون وزيراً خير من أن أكون أميراً»[1].

كما قال بعد مبايعته: «ألا وإن الله عالم من فوق سمائه وعرشه، أني كنت كارهاً للولاية على أمة محمد حتى اجتمع رأيكم على ذلك.. ولكني لما اجتمع رأيكم علي لم يسعني تركككم»[2].

وعندما كان علي بن أبي طالب رضي الله عنه على فراش الموت بعدما طعنه عبدالرحمن بن ملجم الخارجي لعنه الله قيل له: ألا تستخلف علينا؟ قال: «ما استخلف رسول الله ﷺ فأستخلف عليكم، ولكن إن يرد الله بالناس خيراً فيجمعهم على خيرهم كما جمع بعد نبيهم على خيرهم».

فمات علي ولم يوص لأحد من أبنائه، وترك الأمر شورى بين الناس، فلو كانت الخلافة حقاً له ولذريته من بعده لأوصى لأحد أبنائه، وهم الذين بايعوا لمعاوية بن أبي سفيان بالخلافة عن طيب خاطر منهم.

قال عمر بن الخطاب وهو على فراش الموت حين سُئل أن يعهد لأحد من بعده: «إن أعهد فقد عهد من هو خير مني (يعني أبا بكر)، وإن أترك فقد ترك من هو خير مني (يعني النبي ﷺ)»[3].

قال الإمام البخاري: إن عمر وعثمان وعلياً قالوا: لم يستخلف النبي ﷺ.

---

(١) عمر الشريف، نظم الحكم/ ٤٥.
(٢) نفس المصدر/ ٤٥.
(٣) الماوردي، الاحكام السلطانية/ ٣.

طرق اختيار الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم:

أولاً: أبو بكر الصديق رضي الله عنه:

أقام الرسول ﷺ دولة الإسلام في المدينة وفق توجيهات القرآن الكريم على أساس من المحبة والتعاون والشورى والتآلف والأخوة وروح التضحية والفداء في سبيل الله والحفاظ على دين الإسلام.

وقد أظهر الصحابة رضوان الله عليهم قدرتهم على تجاوز الصعاب التي ظهرت لهم فجأة بوفاة الرسول ﷺ، ختاروا خليفتهم الأول أبا بكر الصديق رضي الله عنه، بطريقة اجتهاد وحوار بين الصحابة من المهاجرين والأنصار في سقيفة بني ساعدة في شهر ربيع الأول سنة ١١هـ.

وفيما كان بعض الصحابة مشغولين بالإعداد لدفن الرسول ﷺ كان بعض الأنصار مجتمعين في سقيفة بني ساعدة لاختيار خليفة للرسول ﷺ على اعتقاد منهم أنهم أحق بالخلافة من غيرهم؛ لأن دولة الإسلام قامت عندهم في المدينة، وأنهم آووا المهاجرين في مدينتهم، وقد رشح المجتمعون من الأنصار للخلافة سعد بن عبادة الأنصاري الخزرجي[1].

فأتى آت إلى أبي بكر وعمر وعبدالرحمن بن عوف فكلمهم بما يدور في دار (سقيفة) سعد بن عبادة الخزرجي الأنصاري، فأسرعوا إلى السقيفة وانضموا إلى مَنْ فيها وشاركوا في الحوار لاختيار خليفة للرسول ﷺ.

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ج٤/ ٣٠٨.

ومما قاله أحد الأنصار بعد أن حمد الله: «أما بعد فنحن أنصار الله وكتيبة الإسلام، وأنتم يا معشر المهاجرين رهط منا وقد دفت دافة[1] من قومكم...».

وتكلم سعد بن عباده فبين أحقية الأنصار في الخلافة وأولاهم بها[2]، فرد عليه أبو بكر مبيناً فضل الأنصار في الإسلام إلا أنه حدد الحق بالخلافة للمهاجرين، وأن الأنصار هم وزراؤهم[3]، فتعالت صيحات من الأنصار قائلين: منا أمير ومنكم أمير،[4]، فرد عمر على ذلك قائلاً: «هيهات لا يجتمع سيفان في غمد واحد، والله لا ترضى العرب أن تؤمركم ونبيها من غيركم، ولا تمتنع العرب أن تولي أمرها من كانت النبوة فيهم، ولنا بذلك الحجة الظاهرة، من ينازعنا سلطان محمد ونحن أولياؤه وعشيرته إلاّ مدل بباطل أو متجانف لإثم أو متورط في هلكة».

واحتج المهاجرون بأحاديث الرسول ﷺ عن الأئمة بأنهم من قريش[5] وأن النبي ﷺ أوصى بالأنصار خيراً فقال: «**يا معشر المهاجرين، استوصوا بالأنصار خيراً، فإن الناس يزيدون وإن الأنصار على هيئتها لا تزيد، وإنهم كانوا عيبتي (موطن سري) التي أويت إليها فأحسنوا إلى محسنهم وتجاوزوا عن مسيئهم**»[6].

ووقف أبو عبيدة بن الجراح فقال: «يا معشر الأنصار، إنكم أول من نصر وآزر فلا تكونوا أول من غير وبدل»[7].

---

(١) دافة. الجماعة من الناس تأتي من بلد إلى بلد.
(٢) ابن قتيبةالدينوري. الإمامة والسياسة/ ٥.
(٣) ابن قتيبة، الإمامة والسياسة/ ٤-٥.
الطبري، تاريخ الرسل والملوك ج٣/ ٢٠٥.
(٤) ابن الأثير، الكامل ج٢/ ٣٢٩.
(٥) انظر: الصفحة١٨ ـ ١٩.
(٦) ابن هشام، السيرة النبوية ج٤ / ٣١٠، صحيح مسلم، المجلد٧/ ١٧٤.
(٧) ابن قتيبة، الإمامة والسياسة/ ٧.

فتدخل في الحوار بشير بن سعد الخزرجي الأنصاري فقال مؤيداً المهاجرين حقهم في الخلافة: «يا معشر الأنصار، إنا والله وإن كنا أولي فضيلة في جهاد المشركين، وسابقة في الدين، ما أردنا به إلا رضى ربنا وطاعة نبينا والكدح لأنفسنا، فما ينبغي أن نستطيل على الناس بذلك ولا نبتغي به الدنيا، ألا إن محمداً ﷺ من قريش، وقومه أولى به فاتقوا الله ولا تخالفوهم»[1].

وكان أبو بكر جالساً بين عمر وأبي عبيدة فرفع يدهما وخاطب الناس قائلاً: هذا عمر وهذا أبو عبيدة فأيهم شئتم فبايعوه، فوقف عمر بن الخطاب فقال: «يا معشر الأنصار، ألستم تعلمون أن رسول ﷺ قد أمر أبا بكر أن يؤم الناس، فأيكم تطيب نفسه أن يتقدم أبا بكر»، فمد عمر يده فبايع أبا بكر وبايعه عبدالرحمن بن عوف، فتدافع الناس في السقيفة من الأنصار والمهاجرين فبايعوا أبا بكر ولم يتأخر منهم أحد[2].

وقد أطلق على هذه المبايعة لإبي بكر في سقيفة بني ساعدة البيعة الخاصة؛ لأنها وقعت دون إعداد مسبق ولم يحضرها إلا عدد يسير من الصحابة.

البيعة العامة:

وقعت في اليوم التالي من البيعة الخاصة قبل صلاة الصبح في مسجد الرسول ﷺ إذ جلس أبو بكر على المنبر، ووقف عمر يدعو المصلين أن يتقدموا لمبايعة أبي بكر قائلاً لهم. «إن الله قد جمع أمركم على خيركم، صاحب رسول الله ﷺ وثاني اثنين إذ هما في الغار فقوموا فبايعوا»، فبايع جميع الحاضرين في المسجد لأبي بكر رضي الله عنه، فوقف أبو بكر فخطب في الناس خطبة قصيرة

(١) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي ج٢/ ١٢٣، ابن الأثير، الكامل ج٢/ ٣٣٠.
(٢) ابن الأثير، الكامل ج٢/ ٣٢٥ السيوطي، تاريخ الخلفاء/ ٦٩- ٧٠.

بيَّن فيها منهجه في الحكم، مؤكداً على ثلاثة أمور هي: إقامة العدل، ومواصلة الجهاد لنشر الدين، وتطبيق شرع الله، يقول الطبري: إن أبا بكر خطب في المسجد بعد مبايعته قائلاً: «أيها الناس، قد وليت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوموني، الصدق أمانه، والكذب خيانه، والضعيف فيكم قوي حتى آخذ الحق منه إن شاء الله تعالى، لا يدع أحدكم الجهاد، فإنه لا يدعه قوم إلا ضربهم الله بالذل، أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم، قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله»[1].

ثانياً: اختيار عمر بن الخطاب رضي الله عنه للخلافة:

يروي الواقدي فيما جاء في تاريخ الخلفاء أن أبا بكر الصديق عندما أحس بدنو أجله بعدما أصابته حمى شديده في جمادى الآخرة سنة ١٣ هـ دعا إليه كبار الصحابة، فسألهم عن عمر بن الخطاب فأثنوا عليه ثناءً كبيراً، وهؤلاء الذين سألهم عبدالرحمن بن عوف فقال عن عمر: هو والله أفضل من رأيك فيه، وقال عنه عثمان ابن عفان: اللهم علمي به أن سريرته خير من علانيته، وأنه ليس فينا مثله، وقال عنه أسيد بن حضير: أعلمه الخير بعدك، يرضى للرضى ويسخط للسخط، الذي يسر خير من الذي يعلن، ولن يلي هذا الأمر أحد أقوى عليه منه[2].

ونستنتج من هذه الأسئلة وأجوبتها أن أبا بكر أراد أن يستشير أصحابه في تولية عمر بن الخطاب من بعده، وكلهم أثنوا عليه، فأوصى بالخلافة إليه في كتاب أملاه على عثمان بن عفان حيث جاء فيه:

(١) الطبري، تاريخ الرسل والملوك ج٣/ ٢٢٤.
(٢) السيوطي، تاريخ الخلفاء/ ٢٨.

«بسم الله الرحمن الرحيم

هذا ما عهد به أبو بكر بن أبي قحافة في آخر عهده بالدنيا خارجاً منها وعند أول عهده بالآخره داخلاً فيها حيث يؤمن الكافر ويوقن الفاجر ويصدق الكاذب، إني استخلفت عليكم بعدي عمر بن الخطاب فاسمعوا له وأطيعوا، وإني لم آل الله ورسوله ودينه ونفسي وإياكم خيراً، فإن عدل فذلك ظني به وعلمي به، وإن بدل فلكل امرئ ما اكتسب، والخير أردت، ولا أعلم الغيب وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته»[1] ثم أشرف أبو بكر على الناس فقال: أيها الناس، إني قد عهدت عهداً أفترضون به؟ فقال الناس: «رضينا يا خليفة رسول الله، فقام علي وقال: لا نرضى إلا أن يكون عمر، قال: فإنه عمر»[2].

ثم توفي أبو بكر وتولى عمر بعده رضي الله عنهما، وقد توجه عمر إلى المسجد فاجتمع الناس إليه، فصعد المنبر وخطب خطبة موجزة جاء فيها: «إني قائل كلمات فأمنوا عليهن. إنما مثل العرب مثل جمل أنف اتبع قائده، فلينظر قائده حيث يقود، وأما أنا فورب الكعبة لأحملنهم على الطريق»[3]. ويستفاد عن طريقة استخلاف أبي بكر لعمر بن الخطاب من بعده أنه استشار كبار الصحابة من أهل الحل والعقد قبل أن يصدر قراره بالعهد إلى عمر، ثم عرض قراره على الناس فأقروه حتى يضمن عدم انقسام الأمة من بعده.

كما أن الخليفة أبا بكر كان مقتنعاً بصلاحية عمر للخلافة من بعده، وأن اجتهاده في هذه المسألة كان لصالح الأمة الإسلامية حين ولّى عليهم خيرهم.

(١) محمد حميدالله، الوثائق السياسة/ ٣٢٦.
(٢) السيوطي، تاريخ الخلفاء/ ١٣٦.
(٣) الطبري، تاريخ الرسل والملوك ج٣/ ٤٣٣.

ثالثاً: اختيار عثمان بن عفان رضي الله عنه للخلافة:

استمرت خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه من شهر جمادى الثانية سنة ١٣هـ إلى نهاية شهر ذي الحجة سنة ٢٣هـ، حيث جاءت وفاته بسبب مؤامرة أعدها ثلاثة من مجوس فارس وهم: فيروز أبو لؤلؤة المجوسي وكان غلاماً للمغيرة ابن شعبه أرسله إلى المدينة لينتفع به أهل المدينة، فقد كان حداداً ونجاراً ونقاشاً[١] ومعه الهرمزان وكان أحد ولاة الفرس فقُبِضَ عليه أسيراً وأرسِلَ إلى المدينة فتظاهر بالإسلام، وثالثهم جفينة من نصارى الأنبار، أرسله سعد بن أبي وقاص إلى المدينة ليعلم أبناءها القراءة والكتابة[٢].

وقد تحالف هؤلاء الثلاثة خفية على قتل الخليفة عمر بن الخطاب على أن يتولى طعنه أبو لؤلؤة المجوسي، فنفذ مهمته وطعن الخليفة أثناء إمامته للناس في صلاة الصبح عدة طعنات نافذة أدت إلى وفاته بعد ثلاثة أيام[٣].

وقبل وفاته استدعى إليه عثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب وسعد بن أبي وقاص والزبير بن العوام وعبدالرحمن بن عوف وكان طلحه بن عبيدالله الأسدي غائباً فأوصى لهؤلاء الأشخاص الستة بأن يختاروا واحداً منهم للخلافة.

وقد خاطبهم قائلاً لهم: «إني نظرت فوجدتكم رؤساء الناس وقادتهم، ولا يكون هذا الأمر إلا فيكم، وقد قبض الرسول وهو عنكم راض»، وأوصاهم أن يتشاوروا ويولوا أحدهم في ظرف ثلاثة أيام، وإذا تعادلت الأصوات يرجح عبدالله بن عمر إحدى الكفتين التي فيها عبدالرحمن بن عوف.

---

(١) الطبري، تاريخ الرسل والملوك ج٤/ ١٩١.
(٢) الأمين عوض الله، الخلفاء الراشدون/ ٩٧.
(٣) الطبري، تاريخ الرسل والملوك ج٤/ ١٩٣.

وحدد الخليفة عمر صهيب الرومي إماماً للصلاة في الأيام التي تقع فيها المشاورات لاختيار الخليفة، كما أرسل الخليفة عمر قبل وفاته إلى أبي طلحة الأنصاري فأوصاه قائلاً له: «كن في خمسين من الأنصار مع هؤلاء النفر أصحاب الشورى، فإنهم فيما أحسب سيجتمعون في بيت، فقم على ذلك البيت بأصحابك فلا تترك أحداً يدخل عليهم، ولا تتركهم يمضي اليوم الثالث حتى يُؤمِّروا عليهم»(١).

ويلاحظ على طريقة عمر في الاستخلاف أنه حدد ثلاثة أيام لهؤلاء الستة فلا تزيد عنها حتى لا تقع فتنة بين الناس، كما أنه راعى في الاختيار أخيار الناس في دينهم ودنياهم، حيث مات الرسول ﷺ وهو عنهم راض، وهم سادة عشائرهم وأقوامهم، وكلهم من قريش، كما حدد إماماً للصلاة في مدة المشاورة حتى يتفرغ مجلس الشورى لمسألة الخلافة.

وبعد وفاة عمر ودفنه اجتمع هؤلاء الستة واقترح عليهم عبدالرحمن بن عوف أن يختصرهم، فانسحب منها سعد بن أبي وقاص وطلحة بن عبيدالله والزبير بن العوام. واشترط عبدالرحمن بن عوف على عثمان وعلي أن ينسحب هو منها مقابل تفويضه باختيار واحد منهما للخلافة فقبلا اقتراحه وانسحب عبدالرحمن ابن عوف وبقي الترشيح بين الاثنين عثمان وعلي.

بدأ عبدالرحمن بن عوف مشاوراته بين الناس ليختار واحداً منهما، فرأى ميل الناس مع عثمان بن عفان فخلا بعلي وسأله: أبايعك على كتاب الله وسنة رسوله وسيرة أبي بكر وعمر. فقال: ما استطعت، ثم خلا بعثمان وسأله السؤال نفسه الذي سأله لعلي. فقال: نعم، ثم سأله إن لم أبايعك فبمن تشير عليَّ قال: علي،

(١) السيوطي، تاريخ الخلفاء/ ٢٥٠.

ثم سأل علي بن أبي طالب: إن لم أبايعك فبمن تشير عليَّ، قال: عثمان، ثم جمع عبدالرحمن بن عوف الناس في المسجد وفيهم وجوه الصحابة وعثمان وعلي، فحمد الله وأثنى عليه وقال: إني رأيت الناس يأبون إلا عثمان، ثم أخذ بيد عثمان فقال له: نبايعك على سنة الله وسنة رسوله وسنة الخليفتين بعده، فبايعه عبدالرحمن بن عوف وبايعه المهاجرون والأنصار ولم يتخلف عنه أحد[1].

رابعاً: اختيار علي بن أبي طالب للخلافة:

استمرت خلافة عثمان بن عفان حتى سنة ٣٥هـ، فوقعت فتنة في أواخر خلافته بسبب التحريض الذي أثاره عبدالله بن سبأ اليهودي الأصل، حيث خرج إلى العراق ومصر فوجد أذناً صاغية عند بعض الجهال من الناس بأن الخليفة عثمان ابن عفان ارتكب مخالفات في خلافته، فاجتمع عليه كثير من العوام من مصر والعراق فتوجهوا إلى المدينة، فأثاروا فيها الشغب والأراجيف والفوضى لكثرتهم وعدم قدرة أهل المدينة على منعهم، وحاصروا بيت الخليفة عثمان رضي الله عنه، ثم تسلقوا أسوار بيته واقتحموا عليه فقتلوه وهو يقرأ القرآن سنة ٣٥هـ[2].

وهكذا يرتكب هؤلاء المارقون عن الجماعة الإسلامية أبشع فتنة تقع في الجماعة الإسلامية بقتل خليفتهم غدراً وظلماً، فخلت الجماعة الإسلامية من خليفة يدبر شؤونها، فعرض أهل المدينة الخلافة على علي بن أبي طالب فقبل المبايعة حرصاً منه على وقف الفتنة ولمِّ شمل المسلمين، وقد امتدت خلافته إلى سنة ٤٠هـ حين تكالب عليه الخوارج الذين شقوا عصا الطاعة وفارقوا الجماعة بسبب أهواء ونوازع دنيوية، فامتدت أيديهم إليه فقتلوه غدراً أثناء صلاة الصبح.

---

(١) ابن خلدون، المقدمة/ ٢١٠، السيوطي تاريخ الخلفاء/ ٢٤٦- ٢٤٧.
(٢) السيوطي، تاريخ الخلفاء/ ٢٥٢ وما بعدها.

خامساً: الخلافة الأموية والعباسية:

مات الخليفة الراشدي الرابع علي بن أبي طالب دون أن يوصي لأحد من بعده بالخلافة[1]، فبايع أهل العراق الحسن بن علي وهو غير راغب بها، وكان ميالاً ليبايع معاوية بن أبي سفيان لعدم ثقته بأهل العراق، خاصة أنه رأى ما فعلوه بأبيه من قبل[2]، ثم تنازل الحسن بن علي عن الخلافة سنة ٤١هـ عندما رأى أن من مصلحة المسلمين أن يكون مع أغلبية المبايعيين لمعاوية بن أبي سفيان إذ كانت خلافته مؤكدة أكثر من غيره، وأطلق على هذا العام عام الجماعة.

ثم استمرت الخلافة في بني أميه حتى سنة ١٣٢هـ حينما ارتضى أهل الحل والعقد بأن يوصي الخليفة بولاية العهد من بعده لحفظ الأمة من النزاع والصراع والشقاق، فأوصى معاوية بن أبي سفيان لابنه يزيد من بعده. وعندما توفي معاوية سنة ٦٠هـ انتقلت الخلافة تلقائياً إلى ابنه يزيد (يزيد الأول) وفي خلافته أوصى لابنه معاوية (معاوية الثاني) بولاية العهد، وعندما توفي يزيد الأول بن معاوية ابن أبي سفيان سنة ٦٤هـ، تسلم الخلافة ابنه معاوية الثاني بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان، غير أن خلافة معاوية الثاني لم تستمر طويلاً إذ تنازل عنها بعد ثلاثة أسابيع وترك الأمر شورى بين الناس ولم يوص لأحد من بعده بالخلافة.

انقسم الأمويون على أنفسهم في اختيار واحد منهم، غير أنهم اجتمعوا في الجابية[3] ليحسموا هذا الأمر بسبب ظهور عبدالله بن الزبير في مكة يدعو لنفسه، فاتفق الأمويون في الجابية على اختيار مروان بن الحكم بن العاص بن أمية خليفة لهم على أن تكون ولاية العهد من بعده لاثنين هما: عمرو بن سعيد بن العاص

(١) انظر وصيته لأبنائه التي تخلو من أي شيء عن الخلافة، الطبري، تاريخ الرسل والملوك ج٥/ ١٤٧ - ١٤٨.
(٢) الطبري تاريخ الرسل والملوك ج٤/ ١٢٣.
(٣) الجابية: موقع غرب دمشق بنحو ٦٠ كيلاً.

وخالد بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان، فاستقرت الخلافة لمروان بن الحكم وأصبحت ولاية العهد لاثنين بدلاً من واحد لأول مرة في تاريخ الدولة الاسلامية.

إلا أن مروان بن الحكم غيَّر ولاية العهد إلى ولديه عبدالملك بن مروان وعبدالعزيز بن مروان، ولم تمتد حياة مروان بن الحكم كثيراً إذ إن خلافته كانت قصيرة فتوفي سنة ٦٥هـ فانتقلت الخلافة من بعده لابنه عبدالملك بن مروان.

وفي خلافته أوصى عبدالملك بن مروان بولاية العهد لولديه الوليد وسليمان، وقد تسلم الوليد الخلافة سنة ٨٦هـ، ثم تبعه أخوه سليمان سنة ٩٦هـ.

أوصى سليمان بن عبدالملك بولاية العهد إلى عمر بن عبدالعزيز ويزيد بن عبدالملك بن مروان، فتولى الخلافة عمر بن عبدالعزيز سنة ٩٩هـ بعد وفاة سليمان ابن عبدالملك، ثم تولى الخلافة بعده يزيد بن عبدالملك سنة ١٠١هـ، وفي خلافتة أوصى يزيد بن عبدالملك لولده الوليد بعد أخيه هشام بن عبدالملك.

توفي يزيد بن عبدالملك سنة ١٠٥هـ فانتقلت الخلافة من بعده لأخيه هشام ابن عبدالملك واستمرت خلافته حتى وفاته سنة ١٢٥هـ، وكان هشام بن عبدالملك قبل وفاته أراد أن يخلع ابن أخيه الوليد عن ولاية العهد لتعيين ابنه سليمان مكانه، إلا أن ذلك لم يتم وتولى الخلافة بعده الوليد بن يزيد بن عبدالملك (الوليد الثاني) وكان ولي عهده يزيد بن الوليد بن عبدالملك، فوقعت بينهما خلافات أدت إلى مقتل الخليفة الوليد بن يزيد بن عبدالملك وتولى مكانه ولي عهده يزيد بن الوليد (يزيد الثالث) (يزيد الناقص) إلا أن خلافته لم تدم سوى بضعة أشهر حيث توفي سنة ١٢٦هـ، وكان قبل وفاته قد أوصى بولاية العهد من بعده لأخيه إبراهيم وإلى عبدالعزيز بن عبدالملك بن مروان.

وكانت الخلافات بين بني أمية قد اشتدت وتوسعت إلى أن استطاع مروان ابن محمد بن مروان بن الحكم من حسم الخلافات لصالحه، فتولى الخلافة إلى سنة ١٣٢هـ حيث استطاع العباسيون بعد الاستيلاء على الحكم من بني أمية أن يتعقبوا مروان بن الحكم وهو هارب لا يدري أن يذهب حتى قتل سنة ١٣٢هـ بمصر، وكان آخر خلفاء بني أميه.

وقد سار العباسيون بعدهم على النظام نفسه الذي طبقه الأمويون بولاية العهد حتى سقوط الخلافة العباسية سنة ٦٥٦هـ على يد المغول، كما طبقت هذا النظام نفسه جميع الدول الإسلامية التي ظهرت إبان قيام الخلافة العباسية ومنها: الدولة الأموية في الأندلس (١٣٨-٤٢٢هـ) ودول الطوائف في الأندلس والدول الأخرى في المغرب والدولة الفاطمية بمصر، ودولة الزنكيين والأيوبيين والمماليك في مصر وبلاد الشام والدولة السلجوقية والبويهية والغزنوية والخوارزمية في المشرق الإسلامي، ثم الدولة العثمانية فيما بعد، حيث عملوا بولاية العهد إلى أن ألغيت الخلافة بعد ذلك على يد مصطفى كمال أتاتورك عام ١٣٤٣هـ١٩٢٤م.

الجيش الإسلامي

- القتال عند العرب قبل الإسلام:

ظهر الإسلام بين أظهر العرب وهم الذين مارسوا الحروب وتعودوا عليها وفهموا أساليبها بما يملكون من أسلحة قتالية أشهرها السيف، واستخدموا خيولهم في الكر والفر، ووصفوا ذلك في خطبهم وأشعارهم، ووصفوا ذلك للرسول ﷺ في بيعة العقبة الثانية التي مهدت للهجرة إلى يثرب إذ قالوا له في حينها: «نحن أبناء الحروب ورثناها كابراً عن كابر»[1].

وقد كان ولاء العرب قبل الإسلام إلى القبيلة، وامتازت علاقات القبائل ببعضها البعض بالعنف والثأر، حتى لو كانت هذه القبائل تعيش في مدينة واحدة كما هو الحال بيثرب قبل الإسلام بين الأوس والخزرج، غير أن هذا لا يعني وقوف العرب متفرقين إذا واجهوا عدواً خارجياً، فقد حارب العرب في العراق ضد الفرس وانتصروا عليهم في معركة ذي قار، وفي ذلك قال الرسول ﷺ: «**اليوم انتصف العرب من العجم وبي نصروا**»[2].

ولم يكن للعرب نظام جندية؛ لبداوتهم، فكانوا يخرجون للقتال ثم يعودون إلى بيوتهم، وقد تستمر هذه الحروب أياماً أو تمتد إلى أشهر أو سنين.

- القتال في الإسلام:

أمضى الرسول ﷺ ثلاث عشرة سنة في مكة يدعو إلى الإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة صابراً على أذى قومه، كما صبر معه أصحابه الذين آمنوا به

(١) محمد أبو زهرة، خاتم النبيين، ج١/ ٦٠٤ .
(٢) حافظ ابراهيم العارف، الجيش العربي الإسلامي / ١٣ .

وصدقوا دعوته واحتسبوا الأجر والثواب من الله عز وجل، وأن يجعل لهم مما هم فيه مخرجاً وموئلاً للخلاص.

وظل الرسول ﷺ في هذه المرحلة يركز على وحدانية الله لا شريك له، وأن محمداً رسوله أرسله الله بالهدى ودين الحق بشيراً ونذيراً يتلقى القرآن الكريم كلام الله من قبل الوحي، صابراً على أذى قومه ومعارضتهم لدعوته.

وإزاء هذا العناد المتواصل من زعماء قريش في معاداة الإسلام والتنكيل بأهله جاء اتفاق الرسول ﷺ مع أهل يثرب في بيعة العقبة الثانية على هجرة الرسول ﷺ وأصحابه إلى مدينتهم، وقد تم ذلك وهاجروا إلى إخوانهم الأنصار، وأقاموا معاً دولة الإسلام في المدينة.

وبعد الهجرة إلى المدينة نزلت الآيات بما يتلاءم مع الوضع الإسلامي الجديد في مدينة الرسول ﷺ، فأذنت بالجهاد ومقاتلة الكفار والإعداد اللازم لذلك، قال تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾[1].

والآيات في القرآن الكريم أكدت مشروعية القتال لحماية الدين ودولة الإسلام، وهو أمر دفاعي لإعلاء كلمة الله حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله، وليس معنى هذا إجبار الكفار على الدخول في الإسلام، فهو أمر اختياري لهم

(١) سورة الحج، الآية/ ٤١.

بشرط أن يكون دين الإسلام هو الدين الغالب على وجه الأرض ولا سلطان لغيره لدفع الظلم والاستعباد وإتاحة الفرصة لمن أراد الدخول فيه بحرية كاملة ضمن القواعد التي رسمتها الشريعة الاسلامية، قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا...﴾(١)، وقال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لا تُظْلَمُونَ﴾(٢).

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَفْقَهُونَ﴾(٣).

وتأتي مجاهدة أعداء الإسلام بعد استنفاد كافة الوسائل السلمية قبل القتال، فقد راسل الرسول ﷺ حكام عصره يدعوهم إلى الإسلام، كما استمرت هذه المراسلات بعد ذلك في عهد الخلفاء الراشدين لعرض الإسلام على الناس وبيان الغرض من هذه الدعوة في إقامة الحق والعدل والسلام، وأما إرسال الجيوش الإسلامية بعد ذلك فلم يكن لأجل الاغتصاب والعدوان واحتلال أرض الغير وثرواتهم، قال تعالى: ﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾(٤).

(١) سورة البقرة، الآية/ ١٤٣.
(٢) سورة الأنفال، الآية/ ٦٠.
(٣) سورة الأنفال، الآية/ ٦٥.
(٤) سورة التوبه/ ٤١.

وقال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾(١). وفي مواجهة أعداء الله شددت الآيات على وحدة الصف وعدم التنازع أو الاغترار بالنفس، وضرورة الانقياد والطاعة والثبات في القتال قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلا تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاَّ مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾(٢)، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾(٣).

وقال تعالى: ﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾(٤). وقال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾(٥).

وقال تعالى: ﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾ وَمَا لَكُمْ لا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾(٦) وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ﴾(٧).

---

(١) سورة الأنفال/ ٣٩.
(٢) سورة الأنفال/ ١٥ - ١٦.
(٣) سورة الأنفال/ ٤٥ - ٤٦.
(٤) سورة الأنفال/ ٥٧.
(٥) سورة البقرة/ ١٩٠.
(٦) سورة النساء/ ٧٤ - ٧٥.
(٧) سورة الصف/ ٤.

وليس الإسلام كله دعوة إلى الحرب، فقد بينت الآيات الكريمة أن الحرب في الدولة الإسلامية ليست سوى حرباً دفاعية عن الحرمات وعن دين الله ودفع الظلم والعدوان والإسلام، سلام كله في التعامل مع غير المسلمين، قال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿...فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴿٩٠﴾ سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُولَٰئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا﴾[2] وقال تعالى: ﴿وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾[3] وقال تعالى: ﴿وَإِن نَّكَثُوا أَيْمَانَهُم مِّن بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾ أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[4].

(١) سورة البقرة/ ١٩٠ - ١٩٢ .
(٢) سورة النساء/ ٩٠ - ٩١ .
(٣) سورة الأنفال/ ٦١ .
(٤) سورة التوبة/ ١٢ - ١٣ .

وقال تعالى: ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾(١)، وقال تعالى: ﴿لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾(٢).

- سمو الإسلام في حروبه:

إن مبدأ الإسلام هو الرحمة والشفقة والعدل والإحسان والمساواة وجمع الكلمة وإرساء مبادئ الأمن والحياة الكريمة لكافة الناس تحت ظل الإسلام عرباً كانوا أم عجماً مسلمين أم أهل ذمة.

وعندما عرف أهل البلاد التي جاءت إليها جيوش المسلمين غاية الإسلام ومبادءه تسابقوا إلى الدخول فيه، وانضموا إلى الجيوش الإسلامية، وقاتلوا مع إخوانهم المسلمين لا فرق بينهم وبين العرب، وهذا ما فعله البربر في شمال إفريقية، وما فعله الترك والفرس والمغول بعد دخولهم الإسلام. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾(٣).

---

(١) سورة البقرة/ ١٩٤.
(٢) سورة الممتحنة/ ٨-٩.
(٣) سورة الحجرات/ ١٣.

وكان الرسول ﷺ يوصي قادة جيوش المسلمين أن لا يتجاوزوا الحدود الإنسانية التي رسمها الإسلام مع أعدائه، ومن ذلك أقواله ﷺ في الحث على الجهاد وهي أحاديث كثيرة[١].

وعندما خرج الخليفة أبو بكر الصديق يودع أسامة بن زيد عندما سيره إلى الغزو أوصاه ومن معه قائلاً: «أيها الناس قفوا أوصيكم بعشر فاحفظوها عني. لا تخونوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا طفلاً صغيراً، ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة ولا تعقروا نخلاً ولا تحرقوه، ولا تقطعوا شجرةً مثمرةً ولا تذبحوا شاةً ولا بقرةً ولا بعيراً إلا لمأكلة، وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له»[٢].

وهذا عكس ما جاء في توراة اليهود التي كتبوها بأيديهم وكلها تدعو إلى القتل وسفك الدماء والتدمير والحرق والإبادة وتسخير الناس لخدمتهم وكأنهم حيوانات لا ترقى إلى مستوى البشر.

كما أوصى الخليفة أبو بكر قادة فتوح الشام وهو يودعهم قبل مغادرتهم المدينة المنورة بوصايا تحمل معنى وصيته إلى جيش أسامة[٣]. وأوصى الخليفة عمر ابن الخطاب، القائد سعد بن أبي وقاص قبل توجيهه إلى العراق بوصايا أخرى مشابهة[٤].

وهكذا كانت جيوش المسلمين تكتفي في حروبها بما يؤدي إلى إقرار الحق وإعلاء دين الله.

---

(١) ابن الجوزية، زاد المعاد، ج٣/ ٧٦، وما بعدها.
(٢) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج٣/ ٢٢٦.
(٣) الأزدي، تاريخ فتوح الشام/ ١٢ وما بعدها.
(٤) انظر محمد حميدالله، الوثائق السياسية/ ٧٥٤ وما بعدها.

- نشأة الجيش الإسلامي وتطوره عبر العصور الإسلامية:

بعد هجرة النبي ﷺ وأصحابه من مكة إلى المدينة حصل مزج جديد لأول مرة في الجزيرة العربية بين السكان على أساس الدين وإلغاء العصبية القبليه، وآخى الرسول ﷺ بين المؤمنين به، وأصبح كل واحد منهم مستعداً للدفاع عن الإسلام برغبة منه ودون إكراه، تدفعه الرغبة إلى الشهادة في سبيل الله، فتسابق الناس للخروج إلى الغزوات فرحين بلقاء العدو كلما دعت الحاجة إلى ذلك، أو عندما يستنفرهم الرسول ﷺ للغزو ثم يعود كل واحد منهم إلى بيته كما حصل في غزوات بدر، أحد، الخندق (الأحزاب) فتح مكة، حنين، غزوة مؤتة، تبوك (غزوة العسرة) وهذا ما وصفته الآية الكريمة: ﴿**إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ**﴾(١).

وهكذا كان الصحابة رضوان الله عليهم مستعدين للقتال في أي وقت، ولو أنهم لم يتفرغوا للقتال، فنصرهم الله على أعدائهم حتى لو كان هؤلاء الأعداء أكثر عدداً من المسلمين فقد أقلهم الله في أعين المسلمين، ففتح الله لهم أبواب الأرض بسبب قوة روحهم المعنوية التي يملكونها، وقد أثبتت هذه الروح أنها أقوى من أي سلاح آخر.

وعندما أقام الرسول ﷺ دولة الإسلام في المدينة المنورة بعد الهجرة مباشرة بدأ يعد العدة للدفاع عن الدين ودولته تحت قيادته، ويعتمد هذا الإعداد والتجهيز على دعامتين أساسيتين هما:

(١) سورة التوبة/ ١١١.

أولاً: الإعداد المادي، بالتدريب والتسليح لأخذ الأسباب المؤدية إلى النصر، وبدأ الرسول ﷺ بشراء السلاح حيث أرسل أصحابه لشرائه من جُرْش[1] وحثهم على التدريب فكان يقول لأصحابه «**ارموا وأنا معكم جميعاً**»[2] ويقول: «**الخيل معقود في نواصيها الخير**»[3] وهذا عملاً بقوله تعالى: ﴿**وأعِدُوا لهم ما استَطَعْتم من قُوةٍ ومن رباطِ الخيل، تُرهبُونَ به عدُوَّ اللهِ وعدُوَّكُم وآخَرينَ من دونِهم لا تَعْلَمُونَهم اللهُ يَعلَمُهُم، وما تُنْفقوا من شَئٍ في سَبيلِ الله يُوَفَّ إليكُم وأنْتُم لا تُظْلَمُونَ**﴾[4].

ويقول الرسول ﷺ: «**إن الله ليدخل بالسهم الواحد ثلاثة نفر الجنة، صانعه والرامي به، والممد به، فارموا واركبوا وأن ترموا أحب إلي من أن تركبوا**»[5] ومن هذا المنطلق بدأ الرسول ﷺ بعد الهجرة مباشرة يدرب أصحابه على القتال والقيادة والتعرف على الطرق التي قد تأتي منها قريش لمهاجمة المدينة، ويدربهم على كتم الأسرار والحصول على المعلومات، وهذا ما تم في السرايا التي خرجت من المدينة باتجاه مكة في السنتين الأولى والثانية بعد الهجرة إلى المدينة.

- ثانياً: التدريب المعنوي والروحي:

وهو سلاح أقوى من الأسلحة المادية، بأن يبذل المسلم كل ما يملك من روح ومال في سبيل الله، وهذا البذل والعطاء له أجره عند الله عز وجل. وهذا المفهوم لا يوجد إلا عند أمة الإسلام، وهي ميزة تميزها على سائر الأمم، وهي سر انتصارات المسلمين في كثير من المعارك الحاسمة في التاريخ ولو كانوا أقل عدداً

(١) ابن هشام، السيرة النبوية ج١/ ٤٧٨.
وجُرْش: قرية في الطريق من مكة إلى جهة اليمن.
(٢) رواه البخاري في الترغيب والترهيب ج٢/ ٣٩٩.
(٣) رواه مسلم ج٦/ ٣٢.
(٤) سورة الأنفال، الآية/ ٦٠.
(٥) رياض الصالحين/ ٣٨٥، انظر في الحث على الجهاد، ابن الجوزية، زاد المعاد، ج٣/ ٧٦ وما بعدها.

وعدة من عدوهم، وهي سر الإقدام وعدم التراجع أو الهزيمة التي حرمها الله في كتابه العزيز إلا لخطة مرسومة للالتفاف حول العدو أو لنصرة فئة أخرى، وقد حثت الآيات الكريمة على هذه المفاهيم، وبينت أهمية التضحية في سبيل الله، كما حث الرسول ﷺ على مفهوم التعبئة المعنوية والروحية، فزرع في نفوس أصحابه روح التضحية والفداء في سبيل الله، قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[1] وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾[3].

وفي مجال التحريض على القتال:

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾[4].

---

(١) سورة آل عمران، الآية/ ١٦٩ - ١٧٠.
(٢) سورة البقرة، الآية/ ١٥٤.
(٣) سورة التوبة، الآية/ ١١١.
(٤) سورة الأنفال/ ٦٥ -٦٦.

وبعد ذلك فالنصر من الله أو الشهادة في سبيله وكلتاهما خير للمسلمين قال تعالى: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلاَّ إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ﴾[1]. وقال تعالى: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً﴾[2].

وقد أكدت الآيات على أن الله ناصر عباده المؤمنين الموحدين المنفذين لشرع الله. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾[3].

كما بينت الآيات أن القتال والتضحية في سبيل الله تمحيص للمسلمين لتبين الصادقين من الكاذبين. قال تعالى: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً﴾[4]. وقال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾[5]. وقال تعالى: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾[6].

وأما أحاديث الرسول ﷺ لأصحابه فهي كثيرة في التحريض على القتال وبيان أجر الشهادة في سبيل الله، فهو يقول لأصحابه: «جاهدوا في سبيل الله، فإن الجهاد في سبيل الله باب من أبواب الجنة، ينجي به الله من الهم والغم»[7]. ويقول: «من لم يغز

(١) سورة التوبة/ ٥١-٥٢.
(٢) سورة الأحزاب/ ٢٣.
(٣) سورة محمد/ ٧.
(٤) سورة الأحزاب/ ٢٣.
(٥) سورة محمد/ ٣١.
(٦) سورة العنكبوت/ ٢-٣.
(٧) ابن الجوزية، زاد المعاد، ج٣/ ٧٧.

أو يجهز غازياً أو يخلف غازياً في أهله بخير أصابه الله بقارعة قبل يوم القيامة»[1].

ويقول: «**ورباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها**»[2]. ويقول: «**الجنة تحت ظلال السيوف**»[3] ويقول: «**لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابراً محتسباً مقبلاً غير مدبر إلا أدخله الله الجنة**»[4].

ولا غرابة أن نرى أحد الصحابة وهو عمرو بن الحمام عندما يسمع الرسول ﷺ وهو يبين فضل الشهداء عند الله بأنها جنة بأوصافها، وهو يسوّي الصفوف استعداداً لمعركة بدر، فإذا بعمرو بن الحمام يرمي بضع تمرات كانت في يده ويندفع للقتال وهو يقول: أهذه التمرات تمنعني من دخول الجنة، فيقاتل مقبلاً غير مدبر فينال الشهادة.

تطور الجيش الإسلامي بعد وفاة الرسول ﷺ:

طرأت ظروف جديده في خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه بعد وفاة الرسول ﷺ، إذ ارتدت قبائل عربية على نطاق واسع في الجزيرة العربية، وظهر متنبئون من هذه القبائل، فأعلن الخليفة على هؤلاء حرباً شاملة، وأرسل إلى كافة مناطقهم أحد عشر لواءً لمحاربتهم، على كل لواء قائد من صحابته رضي الله عنهم؛ فقضى على الردة قضاءً مبرماً، كما توسع الخليفة أبو بكر في محاربة الفرس والروم في العراق وبلاد الشام، وأرسل الجيوش تلو الجيوش إلى هذه

(١) ابن الجوزية، زاد المعاد، ج٣/ ٨٦.
(٢) المصدر نفسه/ ٨١.
(٣) ابن هشام، السيرة/ ٢٦٧.
(٤) أخرجه مسلم، ج٦/ ٤٤- ٤٥.

البلاد، وتفرغ الجند للقتال خارج الجزيرة العربية، وغابوا عن أهليهم فترات طويلة، ثم استمرت هذه الفتوحات في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وانقطع الناس للجهاد خارج الجزيرة العربية، واحتاج قادة الجند الفاتحين إلى إمدادات متواصلة تأتيهم من مدينة الرسول ﷺ، فطرأت فكرة التجنيد الإجباري في خلافة عمر حين احتاج الأمر لذلك بحشد الجيوش المتواصله في العراق وفارس وبلاد الشام ومصر بعد ذلك، فقد كتب الخليفة عمر إلى عمال الجزيرة العربية قائلاً: «لا تدعوا من ربيعة ولا مضر ولا حلفائهم أحداً من أهل النجدات ولا فارساً إلا اجتلبتموه، فإن جاء طائعاً وإلا حشرتموه، احملوا العرب على الجد»[1] ثم أرسل يقول: «لا تدعوا أحداً له سلاح أو فرس أو نجدة أو رأي إلا انتخبتموه ثم وجهتموه إليَّ والعجل العجل»[2].

ثم اقتضى الأمر أن يؤسس الخليفة عمر بن الخطاب الدواوين (السجلات) لحفظ بيت مال المسلمين، ودواوين أخرى تتعلق بالجند المحاربين؛ لتسجيل أسمائهم، وحفظ حقوقهم، وتحديد مرتباتهم الشهرية، ومتابعة تسليحهم والإنفاق على أهليهم، وبناء مدن لإيوائهم على الثغور الإسلامية؛ فبنيت مدن البصرة والكوفة والفسطاط لخدمة الجيوش الإسلامية ولتكون قواعد انطلاق لهم في مواصلة الفتوحات، ثم تطورت الخدمات لتناسب ابتعاد وغياب الجيوش مدة طويلة، وحماية الأطراف الواسعة على حدود الدولة، وإقامة القلاع والحصون والمدن الجديدة مثل: القيروان وواسط في العصر الأموي؛ وقاتلت الجيوش الإسلامية على فئتين، هما: الصوائف والشواتي.

(١) الطبري، تاريخ الرسل والملوك ج٣/ ٤٨٧ .
(٢) الطبري، تاريخ الرسل والملوك ج٣/ ٤٧٩ .

وبعد أن كان العنصر الرئيس في الجيش الإسلامي من العرب في بداية الدعوة، إلا أن ذلك تغير في العصرين الأموي والعباسي بدخول عناصر جديدة في الجيش من أهل البلاد المفتوحة مثل: العنصر البربري من شمال إفريقية والعنصر الفارسي والتركي من المشرق الإسلامي، ثم من المماليك الذين أصبح لهم دولة في مصر وبلاد الشام، وتحمل هؤلاء مسؤولية مجاهدة الصليبيين والمغول طوال أكثر من قرنين من الزمان قبل أن يدخل المغول في الإسلام.

الخطط الحربية في الجيش الإسلامي:

أولاً: التحريض على القتال:

الآيات الكريمة كثيرة في القرآن الكريم التي تحث على القتال دفاعاً عن الدين منها، قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَفْقَهُونَ﴾[1].

وكان الرسول ﷺ في الغزوات يحرض المؤمنين على القتال ويحثهم على البذل والتضحية ويبين لهم فضل ذلك في الآخرة[2].

وفي غزوة أحد وقف الرسول ﷺ بين أصحابه وبيده سيف فقال لهم. من يأخذ هذا السيف بحقه؟ فقام أبو دجانه سماك بن خرشة الخزرجي الساعدي الأنصاري فقال: وما حقه يا رسول الله؟ قال: أن تضرب به العدو حتى ينحني[3].

---

(١) سورة الأنفال/ ٦٥.

(٢) انظر الأحاديث في هذا الباب. ابن الجوزية، زاد المعاد، ج٣/ ٨٦.

(٣) محمود شيت خطاب، الرسول القائد/ ١٧٧.

وحرض الرسول ﷺ أصحابه على القتال في غزوة بدر وهو يسوي الصفوف[1]، وحرض أبو بكر الصديق أصحابه على قتال المرتدين، كما حرض الخليفة عمر الناس في الجزيرة العربية للخروج لنصرة إخوانهم في العراق وبلاد الشام.

ثانياً: التعرف على أخبار العدو:

حرص الرسول ﷺ على تتبع أخبار قريش بعد الهجرة إلى المدينة، فقد خرجت السرايا من المدينة تجاه مكة ومن ضمن أهدافها التعرف على تجارة قريش للتعرض لها، وهذا من باب الحصار الاقتصادي الذي يضعف العدو.

كما أرسل الرسول ﷺ عبدالله بن جحش في السنة الثانية من الهجرة إلى وادي نخله قرب مكة ومعه نفر من الصحابة للحصول على معلومات عن قريش[2]، وخرج الرسول ﷺ مع أصحابه في السنة الثانية من الهجرة ليعترض قافلة أبي سفيان العائدة من الشام إلى مكة؛ مما يدل على أن الرسول ﷺ كان يتتبع أخبار عودتها ليعترضها قبل وصولها إلى مكة.

وفي غزوة بدر أرسل الرسول ﷺ اثنين من أصحابه للتعرف على أخبار قريش قبل بدء المعركة؛ فجاءا بأسير أخبر النبي ﷺ أنهم يذبحون في كل يوم ما بين ٩-١٠ من الإبل؛ فعرف الرسول ﷺ أنهم في حدود ألف محارب[3].

وكان العباس بن عبدالمطلب يبعث بأخبار قريش إلى ابن أخيه الرسول محمد ابن عبدالله بن عبدالمطلب ﷺ، ولو أنه لم يدخل الإسلام إلاّ عند فتح

(١) محمد أبو زهرة، خاتم النبيين، ج٢/ ٧٥٤.
(٢) ابن الجوزية، زاد المعاد، ج٣/ ١٦٧، وما بعدها.
(٣) ابن الجوزية، زاد المعاد، ج٣/ ١٧٥ وما بعدها.

أرسل إلى الرسول ﷺ بأخبار قريش عندما تجهزت لغزو المدينة في السنة الثالثة من الهجرة، ووقعت غزوة أحد في هذه السنة[1]، وبعد نهاية غزوة أحد بعث الرسول ﷺ علي بن أبي طالب ليتتبع قريشاً لمعرفة ما إذا كانت قريش تريد اقتحام المدينة أم أنها عائدة إلى مكة[2]، إذ جاء في زاد المعاد أن النبي ﷺ قال لعلي: **«اخرج في آثار القوم فانظر ماذا يصنعون وماذا يريدون، فإن هم جنبوا الخيل وساقوا الإبل فإنهم يريدون المدينة؛ فوالذي نفسي بيده لئن أرادوها لأسيرنَّ إليهم ثم لأناجزنهم فيها»** قال علي: فخرجت في آثارهم أنظر ماذا يصنعون؛ فجنبوا الخيل وامتطوا الإبل ووجهوا إلى مكة[3].

وأرسل العباس بن عبدالمطلب وهو بمكة عن نية قريش لغزو المدينة في السنة الخامسة من الهجرة؛ فاستعد الرسول لهم بحفر الخندق حول المدينة.

وفي السنة السادسة من الهجرة في غزوة الحديبية عندما وصل الرسول ﷺ إلى ذي الحليفة أرسل رجلاً من خزاعة ليستطلع أمر قريش، فذهب إلى عسفان وعاد إلى الرسول ﷺ وأخبره أن قريشاً قد أجمعت أمرها لمنع المسلمين من دخول مكة لزيارة بيت الله الحرام[4]، ومن ذلك ما قيل عن غزوة مؤتة بأنها كانت حملة استطلاعية إلى بلاد الشام لمعرفة أخبار الروم هناك[5].

وبعد فتح مكة في السنة الثامنة الهجرية استعدت قبائل هوازن وثقيف لغزو مكة، فوصلت أخبارهم إلى الرسول ﷺ فاستعدلهم وخرج تجاههم للقائهم قبل أن يأتوا إليه، وكان الرسول ﷺ يكتم أخباره عن قريش، فقد سأل أحد شيوخ

(١) خطّاب، الرسول القائد/ ١٨٩ ، الواقدي، مغازي الرسول/ ١٥٩ .
(٢) ابن الجوزية، زاد المعاد، ج٣/ ٢٤١ .
(٣) المصدر نفسه/ ٢٤١ .
(٤) محمد أبو زهرة، خاتم النبيين، ج٢/ ١٠٠٠ بعدها.
(٥) الرسول القائد/ ٣٠٩ .

الأعراب الرسول ﷺ عن نفسه بعد أن زوده بمعلوماته عن قريش فأجابه ﷺ: «نحن من ماء»، لكتم الخبر عنه[١].

وحينما كان الرسول ﷺ يستعد لغزو قريش في السنة الثامنة هجريه كان قد أخفى الجهة التي يستعد لغزوها حتى عن أقرب المقربين إليه، وهو يدعو ربه «اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها في بلادها»[٢]. وعندما جهز الرسول ﷺ أسامة بن زيد لغزو الروم في شهر صفر سنة ١١ هـ أوصاه قائلاً له: «سر إلى موضع مقتل أبيك، فأوطئهم الخيل، فقد وليتك هذا الجيش فأغر صباحاً على أهل أبنى وحرِّق عليهم وأسرع في السير تسبق الأخبار، فإن ظفرك الله، فأقلل اللبث فيهم، وخذ معك الأدلاء وقدم العيون والطلائع أمامك»[٣].

وقد أوصى الخليفة أبو بكر أحد قادة فتوح الشام فقال له: «واستر في عسكرك الأخبار، وأذك حرسك وأكثر مفاجأتهم في ليلك ونهارك»[٤].

كما أوصى الخليفة عمر بن الخطاب قائد معركة القادسية سعد بن أبي وقاص عندما وجهه إلى العراق قائلاً له: «وإذا وطئتَ أدنى أرض العدو فأذك العيون بينك وبينهم ولا يخف عليك أمرهم»[٥] ودخل عمرو بن العاص حصن أجنادين على أنه سفير من قبل قائده، فتعرف على أخبار الحصن بنفسه وعاد إلى معسكره سالماً من أذى الروم.

وتعرف سعد بن أبي وقاص على أخبار الفرس بواسطة سفرائه إليهم.

---

(١) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج٢/ ٤٣٦.
(٢) ابن الجوزية، زاد المعاد، ج٣/ ٣٩٨.
(٣) محمود شيت خطاب، الرسول القائد ٤٠٥-٤٠٦.
(٤) المسعودي، مروج الذهب، ج٢/ ٣٠٩.
(٥) ابن عبد ربه، العقد الفريد ج١/ ٩٢ - ٩٣.

وعندما كان العباسيون يخططون سراً لإقامة دولتهم كان دعاتهم يتنقلون ما بين خراسان والعراق وجنوب الشام ومكة على شكل تجار أو حجاج فيلتقون ببني العباس ليزودوهم بالأخبار وينقلون منهم التعليمات إلى دعاتهم في جهات أخرى.

ثالثاً: تثبيط المعنويات (حرب الأعصاب):

كان الرسول ﷺ يحرص على محاربة عدوه حرباً نفسيه لتثبيط معنوياتهم، فقد خرج وراء قريش بعد انسحابها من غزوة أحد سنة ٣هـ، لحقهم إلى حمراء الأسد، وأشعل النيران هناك، إلا أنهم جدوا في السير وعادوا إلى مكة[١]، وقد أثنى الله عز وجل على هذا بقوله: ﴿ **الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ** ﴾[٢].

وفي السنة الثامنة من الهجرة توجه الرسول ﷺ لفتح مكة، وعندما وصلت كتائب المسلمين إلى مشارف مكة أمر الرسول ﷺ بإشعال النيران على رؤوس الجبال لترويع أهلها وحملهم على الاستسلام، ثم خرج العباس بن عبدالمطلب وأبو سفيان حرب بن أمية للاستطلاع، فَسيقا إلى الرسول ﷺ، فحشرهما على فم الوادي التي تمر منه كتائب المسلمين، فسأل أبو سفيان العباسَ بن عبدالمطلب من هؤلاء؟ قال: هؤلاء المهاجرون والأنصار، فقال أبو سفيان: لقد أصبح ملك ابن أخيك عظيماً، فقال العباس: إنها النبوة[٣].

ثم سمح الرسول ﷺ لأبي سفيان أن يدخل مكة بعد أن أعطاه الأمان لنفسه وأعطى الأمان لمن يدخل دار أبي سفيان أو يدخل الكعبة أو يدخل داره فيغلق بابه

---

(١) محمد أبو زهرة، خاتم النبيين، ج٢/ ٨٦٧ وما بعدها.
(٢) سورة آل عمران/ ١٧٢.
(٣) ابن الجوزية، زاد المعاد، ج٣/ ٤٠٣.

على نفسه، فدخل أبو سفيان مكة وهو يصيح بأعلى صوته: من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن دخل الكعبة فهو آمن، ومن أغلق بابه على نفسه فهو آمن[1].

وهكذا اتبع قادة المسلمين سياسة حرب الأعصاب مع الأعداء؛ فقد قال رسول قتيبه بن مسلم الباهلي لملك الصين: «إن ورائي جيشاً أوله عندك وآخره في بلاد الزيتون» فقبل ملك الصين أن يدفع الجزية بعدما سمع هذا القول، وقال خالد بن الوليد لأهل قنسرين أثناء فتوحاته في شمال الشام: «لو كنتم في السحاب لحملنا الله إليكم أو أنزلكم إلينا»، وأرسل هارون الرشيد كتابه لملك الروم نقفور حين رفض أن يدفع الجزية، وتهدد الخليفة بالحرب فرد عليه الرشيد على ظهر كتابه قائلاً: «الجواب ما تراه لا ما تسمعه بجيش أوله عندك وآخره عندي».

رابعاً: المفاجأة وسرعة الحركة:

وتأتي أهمية المفاجأة وسرعة الحركة قبل أن تصل أخبار الغزو إلى العدو، ومن ذلك السير ليلاً (السُّرى) والكمائن نهاراً، والسير في طريق غير معروفة، أو المسير إلى جهة وهو يريد جهة أخرى على سبيل الخداع والتضليل، والمفاجأة فجراً؛ لأن العدو لا يكون مستعداً أثناء الليل، فهو ما بين نائم غير متهيئ أو مستيقظ غير مستعد لأعباء القتال، وهذا ما فعله الرسول ﷺ في بني المصطلق سنة ٦هـ[2] وما فعله علي بن أبي طالب حينما بعثه الرسول ﷺ للإغارة على بني سعد بن بكر حين علم أنهم يعينون يهود خيبر وهم شمال المدينة، فخرج إليهم وكان يسير ليلاً ويكمن نهاراً[3] وهذا ما فعله زيد بن حارثة بأهل وادي القرى

(١) ابن الجوزية، زاد المعاد، ج٣/ ٤٠٣ وما بعدها.
محمد أبو زهرة، خاتم النبيين، ج٢/ ١١٩٨.
(٢) الرسول القائد/ ٤٦٣.
(٣) الرسول القائد/ ٢٥٤.

للإغارة عليهم في السنة السادسة من الهجرة[1] وما فعله الرسول ﷺ بهوازن وثقيف حين خرج من مكة لمفاجأتهم قبل أن يصلوا إليه بمكة.

وخرج الرسول ﷺ يريد خيبر، ولكنه توجه إلى بني غطفان ليوهم أنه يريدهم، ثم غير طريقه إلى خيبر فجأة ليعاجلهم بالغزو قبل أن تصلهم أخبار الرسول ﷺ، فعاجلهم الرسول صباحاً بينما كانوا يستعدون للخروج إلى مزارعهم، وعندما كان الرسول ﷺ يتجهز لغزو مكة أخفى خبر الجهة التي ينوي أن يتوجه إليها حتى لا تصل أخباره إلى قريش.

وسار الرسول ﷺ إلى تبوك لمهاجمة الروم هناك في السنة التاسعة من الهجرة، (غزوة تبوك)، وهي التي يطلق عليها غزوة العسرة، فقد وصل إلى تبوك في سرعة كبيرة بالرغم من بعد المسافة وشدة الحر لمفاجأة الروم هناك[2].

خامساً: الموقف من المنافقين (المخذِّلون):

عندما جاء الرسول ﷺ إلى المدينة وأقام دولة الإسلام فيها، تعامل مع فئة من الناس فيها بالحجة حيناً والإعراض عنهم حيناً آخر، والإغلاظ لهم بالقول أحياناً، وهؤلاء هم المنافقون الذين حذر الله منهم وكشف نواياهم في كثير من المواقف، ومن أمثال هؤلاء عبدالله بن أبيّ بن سلول، وقد قال الله عنهم: ﴿**إن المنافقينَ يخادعُونَ اللهَ وهو خادعُهُم وإذا قامُوا إلى الصلاةِ قامُوا كُسَالى يُراؤونَ الناسَ ولا يذكُرونَ اللهَ إلا قليلاً. مُذَبْذَبينَ بينَ ذلك لا إلى هؤلاءِ ولا إلى هَؤُلاءِ ومن يضللِ اللهُ فلن تجدَ له سَبيلاً**﴾[3].

(١) المصدر نفسه/ ٢٥٥.
(٢) المصدر نفسه/ ٤٥٦ - ٤٥٧.
(٣) سورة النساء/ ١٤٢ - ١٤٣.

وفي آية أخرى يقول تبارك وتعالى: ﴿وإذا لَقُوا الذينَ آمَنُوا قالُوا آمَنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا مَعَكُم إنما نحنُ مُستهزءون﴾[1] وقال تعالى: ﴿إذا جاءك المنافقُونَ قالوا نشهدُ إنكَ لَرَسُولُ اللهِ واللهُ يعلَمُ إنكَ لَرَسُولُه واللهُ يشهدُ إن المنَافقين لَكاذبونَ﴾[2].

وقد ظهر هؤلاء المنافقون في غزوة أحد حيث انسحبوا من الطريق وهم خارجون من المدينة، فقد عاد عبدالله بن أبيّ بن سلول مع أتباعه إلى المدينة وعددهم نحو ثلاثمائة شخص[3]. كما ظهر هؤلاء المنافقون في غزوة الأحزاب حيث كشفت نواياهم سورة الأحزاب في أكثر من آية فيها[4]. كما وصفت سورة التوبة موقف هؤلاء المنافقين حينما تخلفوا عن غزوة تبوك[5].

سادساً: المشاورة:

كان الرسول ﷺ يشاور أصحابه عملاً بكتاب الله عز وجل إذ يقول: ﴿فَبِما رَحْمةٍ مِن اللهِ لِنتَ لَهُم ولو كُنتَ فَظاً غَليظَ القلبِ لا نْفَضُّوا مِنْ حَولِكَ فاعفُ عنهم واستغفرْ لَهُم وشاوِرهُم في الأمرِ فإذا عَزمتَ فتوكَّلْ على اللهِ إنَ اللهَ يحبُ المتوكلين﴾[6].

وقوله تعالى: ﴿والذينَ اسْتجابُوا لربِّهم وأقَامُوا الصلاةَ وأمرُهُم شورى بينَهُمُ ومما رزَقناهُم يُنْفِقُونَ﴾[7].

---

(١) سورة البقرة/ الآية، ١٤.
(٢) سورة المنافقون/ ١.
(٣) محمد أبو زهرة، خاتم النبيين، ج٢/ ٨٣١.
(٤) سورة الأحزاب، الآية/ ٢١ وما بعدها.
(٥) سورة التوبة/ ٤٣ - ٥٣، ٨٢، ٨٥-٩٣.
(٦) سورة آل عمران/ ١٥٩.
(٧) سورة الشورى/ الآية ٣٨.

والرسول ﷺ عندما كان يشاور أصحابه ليؤكد لهم أنه لا يستبد بالرأي، وليعلِّمهم الشورى ليمارسوها بعده.

وقد مارس الرسول ﷺ هذه المشاورة في معركة بدر حين كان يستعد لمواجهة قريش إذ قال لأصحابه: «**أشيروا عليّ أيها الناس**» فسمع رأي المهاجرين بالاستعداد للقتال. ثم سمع رأي الأنصار حين وقف ممثلهم سعد بن معاذ الأنصاري وقال: «لقد آمنا بك وصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة، فامض يا رسول الله لما أردت، فنحن معك، فوالذي بعثك بالحق، لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا، إنا لصبر في الحرب صدق عند اللقاء، لعل الله يريك ما تقر به عينك فسر بنا على بركة الله»[1].

كما أشار الحباب بن المنذر لرسول الله ﷺ أن ينزل على ماء بدر فيستولي عليه حتى يحرم قريشاً من الاستفادة منه، فأخذ الرسول برأيه[2]، وأخذ الرسول ﷺ برأي سعد بن معاذ في معركة بدر حين أشار أن يبني له أصحابه عريشاً يقيم فيه لمراقبة سير المعركة[3].

وجاءت الأخبار إلى الرسول ﷺ بنية قريش مهاجمة المدينة في السنة الثالثة من الهجرة، فجمع الرسول ﷺ أصحابه ليستشيرهم فيما يفعله، فأشار البعض بالاستعداد لهم داخل المدينة، وأشارت الأكثرية بالخروج إلى نواحي جبل أحد

(١) محمد أبو زهرة، خاتم النبيين، ج٢/ ٧٤٢ - ٧٤٣.
(٢) المصدر نفسه، ج٢/ ٧٥٢.
(٣) المصدر نفسه، ج٢/ ٧٥٣.

لانتظارهم هناك، فأخذ الرسول ﷺ بهذا الرأي وخرج بأصحابه إلى أحد حيث دارت المعركة هناك[١].

وفي السنة الخامسة الهجرية عزمت قريش على مهاجمة المدينة، ووصلت أخبار هذا التجمع إلى الرسول ﷺ؛ فجمع أصحابه ليستشيرهم في الأمر كما هي عادته، فأشار سلمان الفارسي بحفر خندق حول المدينة؛ فأخذ الرسول ﷺ برأيه وحفر الخندق من نواحي جبل أحد شمال المدينة إلى نواحي جبل سلع من ناحيتها الغربية، وأما بقية نواحي المدينة فلم يتم حفر الخندق حولها لصعوبة اقتحام المدينة منها، إذ تم الحفر من المنطقة السهلة التي يتوقع مجيء قريش منها فيما بين أحد وجبل سلع[٢]، ثم اشتد الحصار في غزوة الأحزاب على المسلمين في المدينة، وتآمرت بنو قريظة على المسلمين فنقضت عهدها مع الرسول ﷺ، فأراد الرسول أن يخفف عن المسلمين ما هم فيه، فاستشار أصحابه أن يمنح بعض القبائل من بني غطفان ثلث ثمار المدينة على سبيل المصالحة ليمتنعوا عن مساعدة قريش فلم يتحمس الصحابة لهذا العرض فأخذ الرسول ﷺ برأيهم[٣]، وفي سنة ٨هـ بعد فتح مكة وهزيمة هوازن وثقيف في غزوة حنين حاصر الرسول ﷺ مدينة الطائف بضعة أيام، ثم استشار أصحابه أن يواصل الحصار أم ينسحب عنها فأشار عليه نوفل بن معاوية بالرحيل، فأخذ الرسول ﷺ برأيه وعاد الى المدينة[٤].

وبعد وفاة الرسول ﷺ مارس أصحابه هذه المشاورة فيما بينهم، فقد استشار أبو بكر أصحابه فيما يفعله بالمرتدين[٥]، وشاورهم فيمن يصلح للخلافة بعده وخصهم بعمر بن الخطاب فكلهم أثنوا عليه خيراً[٦].

---

(١) محمد أبو زهرة، خاتم النبيين، ج٢/ ٨٢٧ .
(٢) محمد أبو زهرة، خاتم النبيين، ج٢/ ٩٢١ .
(٣) محمد أبو زهرة، خاتم النبيين، ج٢/ ٩٣٢ - ٩٣٣ .
(٤) زاد المعاد، ج٣/ ٤٩٧ .
(٥) الأمين عوض الله، الخلفاء الراشدون/ ٤٠ .
(٦) المصدر نفسه/ ٦٣ .

وفي خلافة عمر بن الخطاب استشار أصحابه لبناء أسطول بحري في الشام كما طلب والي الشام معاوية بن أبي سفيان[١]، واستشارهم فيمن يوليه على الحملة التي حشدها في المدينة لإرسالها إلى العراق، فأشاروا عليه بسعد بن أبي وقاص؛ فكلفه لقيادة هذه الحملة[٢].

وشاورهم في رحلته إلى بيت المقدس ورحلاته الأخرى إلى بلاد الشام[٣]، كما استشارهم بتكليف عمرو بن العاص لفتح مصر[٤].

سابعاً: عناصر الجيش الإسلامي:

ظل المجاهدون الأوائل في عهد الرسول ﷺ من المهاجرين والأنصار وعرب الجزيرة العربية، وفي عهد الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم توسع الإسلام خارج الجزيرة العربية فدخل الأعاجم في دين الله وجاهدوا مع إخوانهم العرب وأصبح لهم من الحقوق مثل ما عليهم من الواجبات، وقد أرسل الخليفة عمر بن الخطاب إلى أمراء الأجناد: «من أعتقتم من الحمراء (العجم والروم)فأسلموا فألحقوهم بمواليهم، لهم ما لهم وعليهم ما عليهم، وإن أحبوا أن يكونوا قبيلة وحدهم، فاجعلوهم أسوتكم في العطاء والمعروف»[٥].

وفي شمال إفريقية دخل البربر في الإسلام، وشاركوا العرب في مواصلة الفتح ونشر الدين في المغرب والأندلس، فقد تولى طارق بن زياد من بربر المغرب القيادة في فتح الأندلس.

---

(١) الطبري، تاريخ الرسل والملوك ج٣/ ٣١٦.
(٢) المسعودي، مروج الذهب ج٢/ ٣١٧.
(٣) ابن أعثم، كتاب الفتوح ج١/ ٣١٢.
الأزدي، تاريخ فتوح الشام/ ٢٥٠.
(٤) ابن عبدالحكم، فتوح مصر والمغرب/ ٨٠.
(٥) محمد حميدالله، الوثائق السياسية/ ٥٢٢.

وفي العصر العباسي شارك الفرس إخوانهم العرب في الفتوحات ونشر الإسلام، وتولوا القيادة في محاربة الروم ومواصلة الفتوحات في نواحي الهند وما وراء نهر جيحون، ثم دخل المماليك كعنصر جديد في المجتمع العربي بأعداد كبيرة جداً، وهم إما من العنصر التركي أو من الصقالبه من شرق أوربا أو من العنصر الجركسي في نواحي بحر قزوين، فقد دخل هؤلاء الإسلام وتربوا على أخلاق المسلمين، وقاوم هؤلاء المماليك الصليبيين في بلاد الشام وحملات المغول، ثم دخل المغول في الإسلام، وتحولت حروبهم إلى جهاد في سبيل الله في نواحي الهند والصين وسيبيريا، وأصبح هؤلاء المغول قوةً ودعماً للدولة الإسلامية.

ثامناً: أساليب القتال:

لم يتعود العرب على نظام معين في القتال وإنما تعودوا على أساليب الكر والفر، وبعد الإسلام استحدث الرسول ﷺ نظاماً جديداً في القتال وهو نظام الصفوف، بأن يقف الناس في صفين أو أكثر كما حصل في غزوة بدر[1]، فمدح الله أسلوب هذا القتال بقوله تعالى: ﴿**إِنَّ اللهَ يُحبُّ الذينَ يُقاتِلُونَ في سَبيلِه صَفاً كأنّهُم بنيانٌ مَرصُوصٌ**﴾[2].

وفي غزوة أحد قسم الرسول ﷺ جيشه إلى فئتين، إحداهما فرقة الرماة على تلة مرتفعة مقابل جبل أحد لرشق العدو بالنبال والسهام، وثانيتهما في السهل الممتد ما بين التلة وجبل أحد.

(١) الرسول القائد/ ١١١، ١١٦ - ١١٧، ١٧٦.
(٢) سورة الصف/ الآية ٤.

وفي غزوة الأحزاب اتخذ المسلمون الخندق وسيلة دفاعية لحماية المدينة، وأقاموا خلف خندقهم من ناحية المدينة، أما في فتح مكة فقد اتخذ الرسول ﷺ وسيلة جديدة لدخول مكة بأن قسم جيشه إلى أربع فرق لاقتحام مكة مرة واحدة من جميع جهاتها.

ومن أساليب القتال التي استخدمها الرسول ﷺ أسلوب الحصار، فقد حاصر بني قينقاع وبين النضير في المدينة قبل أن يذعنوا بالاستسلام والخروج من المدينة إلى نواحي خيبر وبلاد الشام[1].

كما حاصر أهل خيبر في حصونهم [2] وحاصر أهل الطائف بعد غزوة حنين[3]. ثم استخدم الفاتحون المسلمون هذا الأسلوب في فتحهم للمدن والحصون في العراق وفارس وبلاد الشام ومصر، فقد حاصر سعد بن أبي وقاص المدائن قبل فتحها، وحاصر قادة الفتح دمشق وحلب وحمص وبيت المقدس وغيرها من المدن في بلاد الشام، كما حاصر عمرو بن العاص حصن بابليون والإسكندرية بمصر.

وفي غزوة مؤتة تسلم القيادة خالد بن الوليد بعد استشهاد قادتها الثلاثه وهم عبدالله بن رواحه وزيد بن حارثة وجعفر بن أبي طالب، فرأى خالد بن الوليد ضرورة الانسحاب عندما رأى تفوق الروم الهائل عن المسلمين في العدد والعدة؛ فقسم جيشة إلى ميمنة وميسرة، وهما: ما يطلق عليهما المجنبتان أو الجناحان، وساقة وهي القوة المسؤولة عن حماية المؤخرة[4]، كما قسم خالد بن الوليد جيشه

(١) محمد أبو زهرة، خاتم النبيين، ج٢/ ٨١٤، ٨٩٢.
(٢) محمد أبو زهرة، خاتم النبيين، ج٢/ ١٠٤٣ وما بعدها.
(٣) محمد الخضري بك، السيرة النبوية/ ١٣٢.
(٤) محمود شيت خطاب، الرسول القائد/ ٣٣٩، ٣٨٣.

في معركة اليرموك سنة ١٣ هـ إلى فرق متعددة، أطلق عليها الكراديس، وهي مجموعات ضمن ما يطلق عليها المقدمة، الميسرة، المؤخرة، القلب (وفيه مقر القيادة).

وقد اتخذ سعد بن أبي وقاص الأسلوب نفسه في معركة القادسية سنة ١٤ هـ، واعتمد كثيراً على ما يسمى الطلائع، وهي مجموعات استطلاعية استكشافيه لمواقع العدو أو لاستكشاف جهات تصلح لإقامة معسكرات المسلمين فيها، ثم بنى المسلمون مدنهم وأقاموا حولها الأسوار لحمايتها من الأعداء.

وفي العصرين الأموي والعباسي ظهرت خطط جديدة عند المسلمين استدعتها ظروف معينة باتخاذ أسلوب الكمائن خلف العدو أو خلف الجيش الإسلامي، بحيث تكون هذه الكمائن مختفية عن أعين العدو لكي تظهر له فجأة أثناء المعركة، فتحصل له الهزيمة كما حصل في معركة ملازجرد بين السلاجقة والبيزنطيين، ومعركة عين جالوت بين المماليك والمغول، وقد أوقعت مفاجآت الكمائن الإسلامية في صفوف البيزنطيين والمغول خسائر فادحة وهزائم ساحقة.

تاسعاً: التسليح:

تعوَّد العرب قبل الإسلام أن يقاتلوا بالسيوف والرماح والأقواس، وبعد الإسلام قاتل المهاجرون والأنصار مع الرسول ﷺ بالسيوف والرماح، والحراب والقسي (للرمي قبل الاشتباك) والبيضه (خوذة من الحديد توضع على الرأس) والمغفر من الزرد يلبس تحت القلنسوة، كما لبسوا الدروع لحماية الصدر، فقد وصف أبو سفيان المسلمين وهم في الوادي القريب من مكة قبل دخولها وصفهم

قائلاً: «فكان أفرادها لا يرى منهم إلا الحُدُق من كثرة الحديد»[1]، كما استخدموا الخناجر والحراب والدبوس (المطرقة) والضبر (جلود مشبعه بالخل لمنع تأثير النيران)، واستخدم المسلمون المنجنيقات لضرب أهداف بعيدة مثل: الحصون، كما استخدموا الدبابات لنقب الأسوار وهي ما استخدمها الرسول ﷺ في حصار الطائف[2].

ولم يقف الأمر عند هذا الحد في التسليح، بل تطورت أسلحة الجيوش بتطور الظروف والأحوال والأزمان، وهذا ما تشير إليه الآية الكريمة: ﴿وأَعِدوا لَهُم ما استَطَعتُم من قوة..... الآية﴾[3]، واستخدم المسلمون سلاحاً وقائياً كحرمان العدو من الاستفادة من عنصر الماء لإضعاف العدو، كما حصل في غزوة بدر حين استولى المسلمون على مائه، كما سيطر المسلمون على الماء حول الحصون في غزوة خيبر، لمنع اليهود من الانتفاع منها لإجبارهم على الاستسلام[4].

واستخدم المسلمون الخنادق لحماية المدن كما حصل في غزوة الأحزاب سنة ٥هـ، واستخدم المسلمون سلاحاً وقائياً بوضع الحسك[5] حول المعسكر الإسلامي وهو ما تفعله الجيوش المعاصرة بوضع أسلاك شائكة لمنع العدو من مباغتة الجيش الإسلامي[6].

---

(١) الرسول القائد/ ٣٥٨.
(٢) أبو زيد شلبي، تاريخ الحضارة الإسلامية/ ١٦٠، حازم العارف، الجيش العربي الإسلامي/ ١٠٩ - ١١٧.
(٣) سور الأنفال/ ٦٠.
(٤) الرسول القائد/ ٣١٧.
(٥) الحسك، شوك يصعب المشي عليه.
(٦) ابن هشام، السيرة النبوية ج٢/ ٣٠٣.

عاشراً: الحشد والنفير العام:

قال تعالى: ﴿انفِرُوا خِفَافاً وثِقَالاً وجاهِدُوا بأموالِكُم وأَنْفُسِكُم في سَبيلِ اللهِ ذلِكُم خيرٌ لكم إنْ كنتُم تعلمُونَ﴾[1]. وقال تعالى: ﴿يا أيُها الذينَ آمَنُوا اصبروا وصابِروا ورابِطوا واتقوا الله لَعَلَّكُم تفلِحُون﴾[2].

وقد بدأ الرسول ﷺ بحشد أصحابه وتجهيزهم للقتال بعد وصوله إلى المدينة في السنة الأولى من الهجرة، فوحد صفوف المسلمين وآخى بينهم، وبيَّن الرسول ﷺ لأصحابه أن ما يميز المسلمين عن غيرهم أن المسلمين يقاتلون في سبيل الله بينما يقاتل الكفار في سبيل الطاغوت، وهذا ما أشارت إليه الآية الكريمة: ﴿الذينَ آمَنُوا يُقاتِلُونَ في سبيلِ اللهِ، والذينَ كَفَروا يقاتِلُونَ في سبيلِ الطاغوتِ. فَقَاتِلُوا أولياءَ الشيطَانِ إن كيدَ الشيطانِ كان ضعيفاً﴾[3].

وقد حشد الرسول ﷺ لغزوة تبوك في السنة التاسعة من الهجرة حين جاءته الأخبار باستعدادات الروم لغزو المدينة، فخرج الرسول ﷺ بهذا الحشد ولم يتجرأ الروم على المواجهة؛ فعاد الرسول ﷺ إلى المدينة دون قتال[4]، وعندما خرجت جيوش الفتح إلى بلاد الشام وتواصل القتال فيها سنين متواصله كان الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه يحشد الجيوش لإرسالها مدداً إلى بلاد الشام وإلى مصر بعد ذلك[5].

---

(١) سورة التوبة/ ٤١.
(٢) سورة آل عمران/ ٢٠٠.
(٣) سورة النساء/ الآية ٧٦.
(٤) محمد أبو زهرة، خاتم النبيين، ج٢/ ١٢٨٩ وما بعدها.
(٥) انظر رسالة الخليفة عمر لأبي عبيدة. الواقدي، فتوح الشام ج١/ ٢٦١.

حادي عشر: المبارزة:

قبل بداية المعركة جرت العادة أن يتبارز اثنان أو أكثر من طرفي القتال كما وقع في غزوة بدر حيث خرج ثلاثة من كفار قريش يطلبون المبارزة وهم: عتبة ابن ربيعة، وأخوه شيبة بن ربيعة، وابنه الوليد بن شيبة بن ربيعة، فخرج لهم من المسلمين عبيدة بن الحارث بن عبدالمطلب، وحمزة بن عبدالمطلب، وعلي بن أبي طالب، فقتل هؤلاء الصحابةُ الكفارَ الثلاثة[1].

وفي غزوة أحد تبارز طليحة بن أبي طلحة من كفار قريش مع علي بن أبي طالب فقتله علي رضي الله عنه[2].

ثاني عشر: الإنذار:

فقد غدر يهود بني قينقاع بما عاهدوا عليه الرسول ﷺ واعتدوا على إحدى نساء المسلمين في سوق المدينة، مما أدى إلى إظهار عداوتهم للمسلمين، فأنذرهم الرسول ﷺ على عداوتهم فلم يذعنوا وتحصنوا في حصونهم، فحاصرهم الرسول وأنذرهم أياماً حتى يستسلموا فنزلوا على حكمه بأن يخرجوا من المدينة فتفرقوا في نواحي خيبر وبلاد الشام[3].

كما غدر يهود بني النضير بوعودهم التي قطعوها على أنفسهم بأن يكونوا مسالمين في المدينة وتآمروا على قتل الرسول ﷺ، فلما انكشفت نواياهم تحصنوا في حصونهم، فأنذرهم الرسول ﷺ بالخروج من المدينة فخرجوا إلى نواحي

(١) محمد أبو زهرة، خاتم النبيين، ج٢/ ٧٦٠.
(٢) المصدر نفسه/ ٨٤٠.
(٣) محمد أبو زهرة، خاتم النبيين، ج٢/ ٨١٤.

خيبر وبلاد الشام[1] وكان الرسول ﷺ قد راسل حكام عصره ودعاهم إلى الإسلام، وحذرهم إن لم يدخلوا في دين الله بأن يختاروا الجزية أو الحرب[2].

ثالث عشر: اختيار الموقع المناسب للقتال:

ففي غزوة بدر اختار الرسول ﷺ المكان المناسب على تلة قريبة من ماء بدر، كما اختار الموقع المناسب خارج المدينة في غزوة أحد ما بين جبل أحد وتلة أخرى قريبة منه، ووضع على التلة مجموعة من الرماة لرمي العدو بالنبال وإشغاله عن تطويق المسلمين من الخلف. واختار موقعاً لحفر الخندق في الجهة الغربية إلى الشمال من المدينة، وتحصن مع أصحابه خلفه إلى جهة المدينة.

وفي الفتوحات الإسلامية خارج الجزيرة العربية اختار خالد بن الوليد جهة الفتوحات بأن يبدأ في العراق من أقرب نقطة إلى الجزيرة العربية فيما كان يعرف بالأبلة (البصرة بعد ذلك) من الجهة الغربية من نهر الفرات، وواصل سيره نحو الشمال على حافة الفرات شمالاً حتى يظل قريباً من أرض الجزيرة العربية، وهكذا فعل خالد بن الوليد حين اختار اليرموك مكاناً للقاء الروم، وهو موقع إستراتيجي غرب دمشق؛ مما كان لهذا الاختيار من نتائج إيجابية في تحقيق انتصار عظيم للمسلمين على أعدائهم.

وحين تحرك سعد بن أبي وقاص إلى العراق أقام في القادسية غرب نهر الفرات حتى يجبر الفرس على عبور النهر إليه، وكان خلف سعد بن أبي وقاص صحراء واسعه يمكنه الانسحاب إليها إذا لزم الأمر، بينما كان خلف الفرس نهر الفرات، حيث غرقت فلولهم فيه بعد هزيمتهم في القادسية.

---

(١) محمد أبو زهرة، خاتم النبيين، ج٢/ ٨٩٢.

(٢) انظر مراسلات الرسول ﷺ إلى حكام عصره، محمد حميدالله، مجموعة الوثائق السياسية.

رابع عشر: المصاهرة:

فقد تزوج الرسول ﷺ جويرية بنت الحارث زعيم بني المصطلق في السنة السادسة من الهجرة، فأصبح هؤلاء موالين للمسلمين وخرجوا من موالاة قريش[1].

وتزوج خالد بن الوليد زوجة مالك بن نويره بعد مقتل زوجها أثناء محاربة المرتدين في خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

خامس عشر: المشاغلة:

المقصود بالمشاغلة مواصلة السير والحركة حتى لا تقع فتنة بين المسلمين لأمر طارئ حصل بينهم؛ فقد حاول عبدالله بن أبيّ بن سلول إثارة فتنة بين المهاجرين والأنصار أثناء العودة من غزوة بني المصطلق، فقال ابن سلول: «لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل» فواصل الرسول ﷺ السير بأصحابه إلى المدينة، وفي غزوة خيبر شاغل الرسول ﷺ الحصون كلها بمهاجمتها كلها في وقت واحد.

ودخل الرسول ﷺ مكة من جهاتها الأربع لمشاغلة أهلها في أكثر من موقع واحد.

وفي محاربة المرتدين أرسل الخليفة أبو بكر رضي الله عنه أحد عشر لواء لمحاربتهم مرة واحدة، فتحرك قادة هذه الألوية إلى جميع أنحاء الجزيرة العربية مرةً واحدة حتى قضوا على المرتدين، ولم يتمكنوا من مناصرة بعضهم ضد المسلمين.

---

(١) ابن سعد، الطبقات الكبرى ج٣/ ١٠٥ - ١٠٦.

كما شاغلت جيوش الفتح في بلاد الشام جيوش الروم في أكثر من مكان، حين أرسل الخليفة أبو بكر أربعة جيوش مرةً واحدة إلى هناك، فوجه أبا عبيدة إلى حمص وحلب في شمال الشام، ووجه يزيد بن أبي سفيان إلى وسط البلاد صوب دمشق، ووجه شرحبيل بن حسنة إلى الأردن، ووجه عمرو بن العاص إلى فلسطين.

ثم قاتل الأمويون والعباسيون شرق الدولة الإسلامية وشمالها في جيوش متتالية فيما كان يسمى بالصوائف والشواتي لمشاغلة أعدائهم طيلة أيام السنة، وقسم قادة الجيوش جنودهم إلى أقسام، تستريح مجموعات وتقاتل أخرى، وهكذا بالتبادل لإشغال الأعداء في مقاتلتهم باستمرار لإنهاكهم.

سادس عشر: الحذر والحيطة:

قال تعالى: ﴿ **يا أيها الذين آمَنُوا خُذُوا حِذرَكم فانفِروا ثُبَاتٍ أو انفِرُوا جَميعاً** ﴾[1].

ومن أمثلة ذلك صلاة الخوف أثناء المواجهة مع العدو، ففي الوقت الذي تصلي فيه جماعة تقوم أخرى على الحراسة كما جاء في قوله تعالى: ﴿ **وإذا كنتَ فيهِم فأقمتَ لهم الصلاةَ فلتقُم طائفةٌ منهم معك وليأخذوا أَسْلِحَتَهُم فإذا سجدُوا فليكُونُوا من ورائِكم ولتأتِ طائفةٌ أخرى لم يُصَلُّوا فليُصَلُّوا معك، وليأْخُذُوا حِذْرَهُم وأسلحَتَهم، ود الذينَ كفروا لو تَغْفُلُونَ عن اسلحَتِكُم وأمتعَتِكُم فيميلُونَ عليكُم مَيْلَةً واحدةً، ولا جُنَاحَ عليكُم إنْ كان بكم أذىً من مَطرٍ أو كنتم مرضى أن تضَعُوا أسْلِحَتَكُم وخُذُوا حِذْرَكمُ إن اللهَ أعد للكافِرِينَ عذاباً مُهِيناً** ﴾[2].

---

(١) سورة النساء/ ٧١.
(٢) سورة النساء/ ١٠٢.

وهكذا كان قادة المسلمين يأخذون الحذر والحيطة بعيداً عن المغامرة بأرواح جندهم، وهذا ما كان يوصي به الخليفة عمر بن الخطاب قادة جيوش الفتح بأن لا يرهقوا جنودهم في السير المتواصل حتى لا يشقّوا عليهم، ولم يقبل الخليفة عمر أن يبني معاوية بن أبي سفيان أسطولاً حربياً للغزو البحري خوفاً على أرواح المسلمين، عندما كان معاوية والياً على بلاد الشام.

سابع عشر: التفريق بين الحلفاء:

عندما حاصر الأحزاب من قريش وحلفائها مدينة الرسول ﷺ في السنة الخامسة من الهجرة أراد الرسول ﷺ أن يمنح بني غطفان ثلث ثمار المدينة مقابل تخليهم عن محالفة قريش، كما قام نعيم بن مسعود بإذن من الرسول ﷺ في غزوة الخندق بالتفريق بين الأحزاب ويهود بني قريظة بخطة قام بها بنفسه حينما تنقل بين معسكر الأحزاب غرب المدينة وبني قريظة الذين كانوا يقيمون شرق المدينة[1].

ثامن عشر: الإمدادات:

حثت الآيات الكريمة على البذل والعطاء لتجهيز المجاهدين في سبيل الله، كما حث الرسول ﷺ على ذلك فقال: «من جهز غازياً فقد غزا، ومن خلف غازياً في أهله بخير فقد غزا»[2] وقد استجاب الصحابة رضوان الله عليهم لهذه الدعوة فمنهم من كان ينفق نصف ماله ومنهم من كان ينفق ماله كله مثل: أبي بكر الصديق وعثمان بن عفان رضي الله عنهما في الغزوات. وكانت نساء المسلمين يمددن المجاهدين بالماء والطعام من السويق (الطحين) والتمور[3].

(١) محمد أبو زهرة، خاتم النبيين، ج٢/ ٩٢٧وما بعدها.
(٢) صحيح مسلم م٦/ ٤٢.
(٣) الواقدي، مغازي الرسول/ ٥٥.

وخارج الجزيرة العربية كانت جيوش المسلمين تعتمد في طعامها على ما يأخذونه من الغارات في أرض العدو وبما يصلهم من المدينة من الغنم والجزور، كما كان قادة الجيوش خارج الجزيرة العربية يقيمون معسكراتهم في أماكن قريبة من الماء، وبما يصلح للرعي كما هو الحال في البصرة والكوفة والفسطاط والقيروان وغير ذلك في بناء المدن الإسلامية.

تاسع عشر: تهديد القوافل التجارية والحصار الاقتصادي:

وذلك لإضعاف شأن العدو وإجباره على التسليم، وهذا ما فعله الرسول ﷺ حين أرسل السرايا من المدينة باتجاه مكة لقطع الطريق على قوافل قريش التجارية في السنتين الأولى والثانية من الهجرة؛ مما أدى إلى غزوة بدر الكبرى.

وعندما حاصر الرسول ﷺ بني النضير في المدينة في السنة الثالثة من الهجرة بسبب تآمرهم على قتل الرسول ﷺ، أمر بقطع نخيلهم ليجبرهم على التسليم، ونزلت الآيات في سورة الحشر تؤيد ما فعله الرسول ﷺ في قوله تعالى: ﴿**ما قطعتُم من لِينَةٍ أو تركتُموها قَائمَةً على أصولِها فبإذنُ الله وليُخزِيَ الكافِرين**﴾[1] فاستسلم بنو النضير وقبلوا حكم الرسول فيهم بإجلائهم عن المدينة.

وفي غزوة خيبر حاصر المسلمون حصون اليهود المملوءَة بالتموين للانتفاع منها وحرمان اليهود منها وأهمها حصن الصعب وحصن السلالم وحصن الوطيح وناعم ونطأة، وعندما سقطت هذه الحصون بيد المسلمين استسلم اليهود وأذعنوا لمطالب الرسول ﷺ[2].

(١) سورة الحشر/ الآية٥.
(٢) محمد أبو زهرة، خاتم النبيين، ج٢/ ١٠٤٣ وما بعدها.

عشرون: الانسحاب:

عندما وقعت غزوة أحد في السنة الثالثة من الهجرة وظن الرماة على التلة المقابلة لجبل أحد أن المعركة قد انتهت بهزيمة قريش نزلوا من مواقعهم واستدار خالد ابن الوليد خلف المسلمين، وكان يقاتل مع قريش قبل إسلامه، فأدت هذه المفاجأة إلى خلخلة صفوف المسلمين، فانسحب الرسول ﷺ مع بعض أصحابه إلى سفح جبل أحد واعتبرت قريش أن المعركة قد انتهت بانتصارهم وعادوا إلى مكة[1].

وفي غزوة مؤته فوجئ جيش المسلمين بالفارق الكبير بين عددهم وعدد الروم، وبالرغم من ذلك قاتلوا الروم واستشهد القادة الثلاث الذين عينهم الرسول وهم: زيد بن حارثة وجعفر بن أبي طالب، عبدالله بن رواحة، فتسلم القيادة خالد بن الوليد فأعاد ترتيب الجيش، وبدأ بالمراوغة كي ينسحب سالماً من جيوش الروم الهائلة، فَمدح الرسول ﷺ انسحاب خالد وأصحابه فقال: «إنهم ليسوا بالفرارين ولكنهم الكرارون إن شاء الله»[2].

(١) محمد أبو زهرة، خاتم النبيين، ج٢/ ٨٣٨ وما بعدها.
(٢) محمد أبو زهرة، خاتم النبيين، ج٢/ ١١٣٩ وما بعدها.

الأسطول البحري الإسلامي

كانت معرفة العرب بالبحر واستخدام السفن البحرية قليلة قبل الإسلام، وكانت رحلاتهم التجارية من مكة إلى خارج الجزيرة العربية وأطرافها رحلات برية وخاصة إلى بلاد الشام وفارس واليمن، وهذا لايعني أن العرب لم يعرفوا ركوب البحر على الإطلاق، فقد جاء في السيرة النبوية أن بعض مسلمي مكة هاجروا إلى الحبشة الهجرتين الأولى والثانية عن طريق البحر(١).

وفي عهد الرسول ﷺ لم يحصل غزو بحري، بل اقتصرت الدعوة بما فيها من غزوات على الجزيرة العربية فقط، باستثناء تلك المراسلات التي أرسلها الرسول ﷺ إلى حكام عصره لدعوتهم إلى الإسلام.

وظل الأمر على حاله في خلافة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، حيث إن المسلمين حاربوا المرتدين داخل الجزيرة العربية، وخرجت جيوش الفتح إلى العراق وفارس وبلاد الشام دون حاجة لركوب البحر، وقد ظل الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه يعارض بناء أسطول بحري لاستخدامه في غزوات بحرية حرصاً منه على أرواح المسلمين.

وكان العلاء بن الحضرمي والياً على البحرين في خلافة عمر، فغزا فارس عن طريق البحر دون إذن من الخليفة عمر وفشلت حملته، فشق ذلك على أمير المؤمنين فعزله لذلك(٢).

---

(١) ابن الجوزية، زاد المعاد ٢٤ وما بعدها.

(٢) المقريزي، خطط المقريزي ج٢/ ١٨٩.

وعندما استقر الفتح الإسلامي في بلاد الشام، وأقر الخليفة عمر أحد قادة فتوح الشام معاوية بن أبي سفيان والياً عليها، لاحظ معاوية اتساع شواطئ تلك البلاد، وأن السفن الرومانية تسيطر عليها وعلى البحر المتوسط (بحر الروم سابقاً) لخلوه من السفن الإسلامية ولقرب بلاد الشام من بلاد الروم؛ لذلك استأذن أمير الشام معاوية الخليفة عمر أن يسمح له ببناء أسطول بحري لحماية شواطئ بلاد الشام ولمواصلة الفتوحات في الجزر المختلفة داخل البحر المتوسط تمهيداً للوصول إلى القسطنطينية، فأبى عليه ذلك[1]، وأوصاه بتحصين الثغور وشحن المقاتلة فيها وإقامة الحراس على مناظرها[2].

ثم ألح معاوية بطلبه وحاول إقناع الخليفة، فأرسل عمر إلى عمرو بن العاص وكان والياً على مصر بعد فتحها يسأله عن ركوب البحر، فكتب عمرو بن العاص إلى الخليفة عمر يقول: «يا أمير المؤمنين، إني رأيت البحر خلقاً كبيراً يركبه خلق صغير، ليس إلا السماء والماء، إن ركد أحزن القلوب، وإن ثار أزاغ العقول، يزداد فيه اليقين قلة، والشك كثرة، هم فيه كدود على عود، إن مال غرق، وإن نجا برق»[3].

فكتب عمر إلى واليه على الشام معاوية بن أبي سفيان: «لا والذي بعث محمداً بالحق، لا أحمل فيه مسلماً أبداً، وتالله لمسلم أحب إليَّ مما حوت الروم، فإياك أن تعرض لي، وقد تقدمت إليك، وقد علمت ما لقي العلاء بن الحضرمي مني ولم أتقدم إليه في مثل ذلك»[4].

---

(١) البلاذري، فتوح البلدان ج١/ ١٦٩ .
(٢) البلاذري، فتوح البلدان ج١/ ١٥٢ .
(٣) الطبري، تاريخ الرسل والملوك ج٣/ ٣١٦ .
ابن خلدون، المقدمة/ ٢٥٣ .
(٤) الطبري، تاريخ الرسل والملوك ج٣/ ٣١٦ .

وبعد وفاة الخليفة عمر بن الخطاب آخر سنة ٢٣هـ وتولي عثمان بن عفان رضي الله عنه الخلافة عاود معاوية بن أبي سفيان الكرة بالطلب لكي يسمح له ببناء أسطول بحري على ساحل الشام ليستخدمه في الغزو البحري فسمح له بذلك، كما سمح لواليه على مصر عبدالله بن سعد بن أبي سرح ببناء أسطول بحري[١]، وقد ساعدت الأخشاب الموجودة بجبال لبنان على بناء السفن البحرية في كل من الشام ومصر، وأصبح للمسلمين أسطول بحري في البحر المتوسط سنة ٢٦هـ[٢].

يقول المقري: إن الخليفة عثمان بن عفان اعتقد أنه بإمكانه الالتفاف على أوربا الغربية للوصول إلى القسطنطينية بعد إكمال الفتح الإسلامي إلى بلاد المغرب[٣].

وفي سنة٢٨هـ غزا معاوية بن أبي سفيان بحراً إلى قبرص لأول مرة، وكانت معه زوجته فاخته بنت قريظة وعدد من الصحابة منهم أبو الدرداء وأبو ذر الغفاري وفضالة بن عبيد الأنصاري والمقداد بن الأسود وعبادة بن الصامت ومعه زوجته أم حرام بنت ملحان الأنصارية، ففتحت قبرص صلحاً ودخلها المسلمون في هذه السنة[٤].

وفي سنة ٣١هـ وقعت أول معركة بحرية بين الأسطول الإسلامي والأسطول الروماني في البحر المتوسط (بحر الروم سابقاً) مقابل الإسكندرية، وكان عبدالله ابن سعد بن أبي سرح قائد الأسطول الإسلامي في هذه المعركة التي أطلق عليها معركة ذات الصواري، يشاركه فيها معاوية بن أبي سفيان بسفن بحرية جاء بها من

(١) الطبري، تاريخ الرسل والملوك ج٣/ ٣١٥ - السيوطي، تاريخ الخلفاء/ ١٠٤ .
(٢) البلاذري، فتوح البلدان ج١/ ١٥١، ١٨١ .
(٣) المقري، نفح الطيب ج١/ ٢٥٩ .
(٤) البلاذري، فتوح البلدان ج١/ ١٨١ .

الشام لمساعدة الأسطول المصري، وكانت السفن الرومانية أكثر بكثير من السفن الإسلامية، إلا أن عبدالله بن سعد بن أبي سرح تمكن بسفنه من تحطيم أكثر السفن الرومانية وقتل الكثير من رجالهم، وهُزِمت باقي سفنهم حيث لم تعد لها السيادة على البحر المتوسط بعد هذه المعركة[١].

وعندما آلت الخلافة إلى الأمويين ابتداء من خلافة معاوية بن أبي سفيان بدأ تعاون وثيق بين مصر والشام في مجال الأساطيل البحرية وبناء السفن، وقد أثمر هذا التعاون بين البلدين في تبادل المنافع اللازمة لتلك الصناعة البحرية من أخشاب وحديد ومعدات أخرى.

وقد اهتم معاوية بن أبي سفيان بصناعة السفن وتقوية أسطوله على ساحل الشام، وقام بتنشيط صناعة السفن على ساحل عكا بفلسطين، ثم بدأ معاوية بن أبي سفيان بحروبه البحرية فغزا جزيرة رودس عن طريق البحر سنة ٥٢هـ بقيادة جنادة ابن أبي أمية فافتتحها عنوة، كما فتح جزيرة أرواد سنة ٥٤هـ، ثم غزا جزيرة أقريطش واتخذ من هذه الجزر في البحر المتوسط قواعد لغزو القسطنطينية[٢]، وأرسل معاوية بن أبي سفيان إلى عامله على مصر مسلمة بن مخلد ليهتم بصناعة السفن فأسس ابن مخلد داراً لصناعة السفن على جزيرة الروضة قرب الفسطاط على نهر النيل سنة ٥٤هـ[٣].

(١) الطبري، تاريخ الرسل والملوك ج٥/ ٧٠.
ابن الأثير، الكامل ج٣/ ١١٨.
(٢) البلاذري، فتوح البلدان ج١/ ٢٧٩.
اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي ج٢/ ٢٢٩.
المسعودي، مروج الذهب ج٣/ ٢٤، ابن الأثير، الكامل ج٣/ ٤٩٧.
(٣) المقريزي، خطط المقريزي ج٢/ ١٩٠-١٩١.

ثم أرسل معاوية بن أبي سفيان حملة بحرية عن طريق البحر المتوسط لفتح القسطنطينية بقيادة ابنه يزيد بن معاوية سنة ٥٤هـ، ثم تكررت هذه الحملة عدة مرات حتى سنة ٦٠هـ، ولم تنجح كل هذه المحاولات بسبب مناعة أسوار القسطنطينية وبعدها عن قاعدة الدولة الإسلامية.

وفي خلافة عبدالملك بن مروان (٦٥-٨٦هـ) استطاع أحد قادة فتح المغرب حسان بن النعمان أن يوسع سيطرته على ساحل إفريقية (الجمهورية التونسية حالياً) أكثر من ذي قبل حيث طرد الروم من ساحل إفريقية وبنى ميناء تونس وداراً لصناعة السفن فيها[١].

وفي خلافة الوليد بن عبدالملك تكررت المحاولات لفتح القسطنطينية عن طريق البحر، فقد أرسل إليها حملة بحرية سنة ٩٤هـ وتولى قيادتها أخوه مسلمة بن عبدالملك، فتأخرت هذه الحملة إلى خلافة سليمان بن عبدالملك (٩٦-٩٩هـ) وفشلت في تحقيق أهدافها، واستمرت إلى خلافة عمر بن عبدالعزيز (٩٩-١٠١هـ) بعد وفاة سليمان، فأمر بانسحاب الحملة إلى بلادها سنة ٩٩هـ بسبب فشلها في تحقيق أهدافها لبعد القسطنطينية ومناعة أسوارها والخسائر البشرية التي تعرضت لها هذه الحملة بسبب النار الإغريقية التي كان أهل القسطنطينية يستخدمونها ضد الأسطول الإسلامي أثناء الحصار[٢].

وفي خلافة الوليد بن عبدالملك عبرت السفن الإسلامية من ميناء طنجة في المغرب إلى الأندلس بقيادة طارق بن زياد، وهي كما قيل سفن إسلامية أو كانت بحوزة يوليان حاكم طنجة قبل الفتح الإسلامي.

(١) المقريزي، خطط المقريزي ج٢/ ١٩٠-١٩١.
(٢) الطبري، تاريخ الرسل والملوك ج٨/ ١١٨.

وفي عهد الطولونيين والإخشيديين بمصر في القرنين الثالث والرابع الهجريين توسعت صناعة السفن البحرية بجزيرة الروضة قرب الفسطاط لحماية مصر من هجمات أعدائهم من البحر، كما امتد نفوذهم إلى ساحل الشام، فبنوا لهم قاعدة بحرية على ساحل مدينة عكا بفلسطين، وقد وصف المقدسي هذا الميناء الذي بناه جده أبو بكر البناء المهند لابن طولون والطرق التي استخدمها في هندستها حتى تدخل المراكب آمنة إليه، فعد هذا الميناء من العجائب في عصره[1].

كما أولى أحمد بن طولون عنايته بموانئ صور وصيدا، فقام بتوسعتهما[2]، كما اهتم ببناء ميناء طرسوس على ساحل الشام وخرجت السفن البحرية من هذه الموانئ لغزو الروم[3].

وقد اهتم ابن طولون بميناء الإسكندرية ووسعه سنة ٢٥٦هـ، ثم جاء ابنه خمارويه بعده فأهمل هذا الميناء وضعف شأن الأسطول الإسلامي في عهده[4]. وأرسل الخليفة العباسي الراضي بالله محمد بن المقتدر كافور الإخشيدي إلى مصر ومنحه أسطولاً بحرياً لمواجهة ابن طغج فانتصر عليه واستولى على الفسطاط سنة ٣٢٣هـ.

وفي القرن الثاني الهجري قامت دولة الأغالبة في المغرب (نسبة إلى إبراهيم ابن الأغلب) الذي عينه هارون الرشيد بمشورة من أحد القادة ويدعى هرثمة بن

(١) المقدسي، أحسن التقاسيم/ ١٦٢- ١٦٣ .
حبنكه، الحضارة الإسلامية/ ١٦٨ .
(٢) اليعقوبي، كتاب البلدان/ ٣٢٧ - ٣٢٨ .
(٣) المسعودي، مروج الذهب ج٤/ ٢١٣ .
ابن الأثير، الكامل ج٧/ ٣٩٦ .
(٤) المقريزي، خطط المقريزي ج١/ ٣٠٠ .
السيوطي، حسن المحاضره ج٢/ ٢٢٣ .

أعين، حيث عينه والياً على إفريقية، ثم استقل إبراهيم بن الأغلب وأبناؤه من بعده وأنشؤوا دولة الأغالبة في الفترة ما بين ١٨٤-٢٩٦هـ/ ٨٠٠-٩١٩م[١].

اهتم الأغالبه بأسطولهم البحري في ميناء تونس، ووسعوا سفنهم البحرية حتى سيطرت على ساحل إفريقية، ولم تستطع سفن الروم الاقتراب من تلك الشواطئ، وتولى قيادة الأسطول الأغلبي أسد بن الفرات في عهد زيادة الله بن الأغلب[٢] فكان يتجول بأسطوله على الشواطئ الشماليه للبحر المتوسط حول جزيرة صقلية موقعاً خسائر كبيرة بسفن الروم في البحر المتوسط، ثم استشهد في إحدى المعارك البحرية هناك وتولى قيادة الأسطول مكانه محمد بن أبي الجواري فنال الشهادة، وتولى مكانه زهير بن غوث فانسحب عائداً إلى تونس، وتوالت الحملات البحرية الأغلبية إلى جزيرة صقلية حتى استولت عليها سنة ٢٤٤هـ/ ٨٥٩م[٣].

وعندما قامت الدولة الفاطمية بمصر (٣٥٨-٥٦٧هـ) وامتدت إلى بلاد الشام، بدأ عهد جديد من البحرية الإسلامية في البحر المتوسط على ساحل مصر وبلاد الشام لحماية سواحلهما في هذه البلاد، وقام الفاطميون بتعزيز قواعدهم البحرية في كل من الإسكندرية ودمياط وتنيس وعسقلان وطرابلس الشام وصيدا وصور وعكا، بالإضافة إلى سرت وتونس في المغرب، حيث كانت بداية دولتهم هناك قبل أن يأتوا إلى مصر، كما استولى الفاطميون على صقلية فعززوا أسطولهم البحري فيها[٤].

(١) حسين مؤنس، تاريخ المغرب/ ٢٦٢.
(٢) حسين مؤنس، تاريخ المغرب/ ٢٧٤ - ٢٧٥.
(٣) المصدر نفسه/ ٢٧١ - ٢٨١.
(٤) المقريزي، خطط المقريزي ج٢/ ٣٧٨.
القلقشندي، صبح الأعشى ج٣/ ٤٩٢.

ثم أنشأ الفاطميون دوراً لصناعة السفن بمصر في موانى الإسكندرية والمقس ودمياط وجزيرة الروضة[1] وكانوا يحضرون الأخشاب والمواد الأخرى اللازمه من المغرب وصقلية والأقاليم المجاورة[2]. وقد واصلت سفن الفاطميين التصدي لأساطيل الروم في البحر المتوسط، كما تصدت لسفن الحملات الصليبية التي قدمت إلى ساحل الشام في القرن السادس الهجري[3].

وقد أحس الأمويون في الأندلس بخطورة الأسطول البحري الفاطمي عليهم، فدعموا أسطولهم في المرية على الشاطئ الشرقي من الأندلس، وتبادلت سفنهم الهجمات المتواصله مع السفن الفاطمية عند شواطئ تونس سنة ٣٤٥هـ[4].

وفي هذه الفترة سيطرت السفن البحرية الفاطمية بمصر والدولة الأموية في الأندلس على البحر المتوسط، وملكوا جزره في ميورقه ومنورقة ويابسة وسردانية، وصقلية وقوصرة ومالطه وأقريطش (كريت) وقبرص، وتقلص النفوذ الروماني كثيراً في مياهه[5].

(١) المقريزي، خطط المقريزي ج٢/ ٣٧٧، ج٣/ ١٠٨.
السيوطي، حسن المحاضرة ج٢/ ٢٢٢.
(٢) ابن مماتي، قوانين الدواوين/ ٢٥٠.
الإدريسي، نزهة المشتاق/ ٩٠- ٩١.
المقدسي، أحسن التقاسيم/ ٢٢٦، ابن حوقل، صورة الأرض/ ١١٧.
(٣) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق/ ١٦٠.
ابن الأثير، الكامل ج٨/ ٢١٩ - ٢٥٩.
النويري، نهاية الأرب/ ٢٣٢- ٢٣٥.
(٤) ابن عذاري، البيان المغرب ج٢/ ٣١٨- ٣٢١.
ابن الأثير، الكامل ج٦/ ٣٤٩.
(٥) ابن خلدون، المقدمة/ ٢٥٤.
السيد عبدالعزيز سالم، تاريخ مدينة المرية الإسلامية/ ٢٠- ٥٣.

وفي الفترة التي امتد فيها نفوذ الفاطميين على سواحل إفريقية ومصر وبلاد الشام، ونفوذ الأمويين المناوئين لهم وللعباسيين على شواطئ الأندلس، تقلص اهتمام العباسيين بالأساطيل البحرية، ووجهوا اهتمامهم إلى دول الشرق الإسلامي في نواحي خراسان والهند وما وراء نهر جيحون، وهي بلاد لا تحتاج إلى ركوب البحار.

وفي أواسط القرن السادس الهجري ضعفت الدولة الفاطمية بمصر وقويت الممالك الصليبية على ساحل بلاد الشام، وتوالت الحملات الصليبية البحرية على سواحلها وسواحل مصر، وكان نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي بدمشق يراقب ما يفعله الصليبيون على الشواطئ المصرية طامعين بامتلاكها، فأرسل ثلاث حملات برية لمساعدتها في المدة ما بين ٥٥٩-٥٦٤هـ/ ١١٦٤-١١٦٨م متمنياً أن يضم مصر إلى بلاد الشام تحت حكمه، ويقضي على الفاطميين لعدم جديتهم في مقاومة الصليبيين؛ مما أدى إلى إضعاف الجبهة الإسلامية، ثم استطاع أسد الدين شيركوه قائد الحملات النورية أن يفرض نفسه وزيراً للعاضد آخر حكام الفاطميين سنة ٥٦٤هـ١١٦٨م، ثم توفي بعد عدة أشهر فحل محله على وزارة العاضد ابن أخيه صلاح الدين الأيوبي، الذي انتهت على يديه الدولة الفاطمية بمصر سنة ٥٦٧هـ/ ١١٧١م، وأصبح صلاح الدين حاكماً لمصر وتابعاً لنور الدين زنكي تحت سيادة الخلافة العباسية، ثم توفي نور الدين زنكي بدمشق سنة ٥٦٩هـ/ ١١٧٤م مما أتاح لصلاح الدين الأيوبي أن يضم بلاد الشام إلى مصر في دولة واحدة تحت حكمه والتي أطلق عليها الدولة الأيوبية، فبدأ عهد جديد من الصراع بين الأيوبيين والصليبيين.

وقد أدرك صلاح الدين الأيوبي أهمية الأسطول البحري في جهاده الشامل على الصليبيين، فأفرد للبحرية ديواناً خاصاً للإنفاق عليها وتأمين الأخشاب

اللازمة لبناء السفن من لبنان والبلاد المجاورة[١]. كما عمل صلاح الدين على إصلاح دور الصناعة البحرية وتحصين الموانى المصرية والشامية وشحنها بالرجال والسلاح[٢].

ثم بدأ بشن الغارات على الممالك الصليبية على ساحل بلاد الشام، فاستولى على قيسارية وبيروت وجبيل وعسقلان[٣].

وفي أواخر حياته عين صلاح الدين الأيوبي أخاه العادل أبا بكر رئيساً عاماً لديوان الأسطول البحري[٤].

وفي أواخر الحكم الأيوبي هاجم الصليبيون مصر بالحملة الصليبية السابعة بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا، فهاجم بأسطوله ميناء دمياط سنة ٦٤٧هـ/ ١٢٤٩م فاستولى عليها، وواصل السير بأسطوله البحري باتجاه القاهرة عبر فرع دمياط حتى وصل إلى المنصورة، فمات في هذه الأثناء الملك الصالح نجم الدين أيوب، فتصدت زوجته شجرة الدر للصليبيين، وأوصت لابن زوجها توران شاه بالمجيء إلى مصر ليتسلم مقاليد الحكم مكان أبيه، وكان مقيماً في الجزيرة الفراتيه، فجاء مسرعاً وقاتل الصليبيين بمماليك أبيه في المنصورة، ونقل سفنه البحرية على الجمال وأنزلها في فرع دمياط خلف السفن الصليبية فأوقع بهم خسائر فادحة وفشلت الحملة الفرنسية وعادت فلولها المهزومة إلى بلادها خائبة[٥].

---

(١) ابن مماتي، قوانين الدواوين/ ٣٢٧.
المقريزي، السلوك ج١/ ١٧٣.
(٢) أبو شامة، كتاب الروضتين ج١ ق٢/ ٦٨٩.
(٣) المصدر نفسه/ ١١-٤٨.
(٤) المقريزي، السلوك ج١/ ١٠٧-١٠٨.
(٥) أبو المحاسن، النجوم الزاهرة ج٦/ ٣٦٤.

وشاءَت الظروف أن يتحوَّل الملك بمصر وبلاد الشام بعد شجرة الدر من الحكم الأيوبي إلى الحكم المملوكي لأكثر من قرنين ونصف من الزمان، وكان الأسطول الإسلامي في هذه البلاد قد ضعف كثيراً وازدادت شوكة الصليبيين، فوجه سلاطين المماليك اهتمامهم بالأسطول البحري لحماية الشواطئ الشامية ومصر، فقد أمر السلطان بيبرس بإحضار الأخشاب اللازمة لصناعة السفن إلى ثغري دمياط والإسكندرية، واهتم بإصلاح الجسور والمنائر[1]، واستطاعت سفنه البحرية الوصول إلى أنطاكيا بشمال الشام سنة ٦٦٦هـ/ ١٢٦٨م[2]، كما هاجمت سفنه جزيرة قبرص أثناء حكم لوز جنان الصليبي لها سنة ٦٦٨هـ/ ١٢٧٠م[3] وفي عهد سلاطين المماليك بعد ذلك توالت الحملات البحرية إلى قبرص ورودس بعد إخراج الصليبيين من جميع السواحل الشامية.

ومن هنا نلاحظ أهمية الأسطول الإسلامي في الدولة الإسلامية لوقوع أكثر ولاياتها على البحر المتوسط، مما مكن لهذا الأسطول المحافظة عليها ومواصلة الفتوحات البحرية ابتداءً من خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه إلى نهاية الحكم المملوكي لمصر وبلاد الشام سنة ٩٢٢هـ/ ١٥١٧م.

ومن أشهر قادة البحر في هذه المرحلة الطويلة عبدالله بن سعد بن أبي سرح، عبدالله بن قيس الحارثي، جنادة بن أمية، أسد بن الفرات، أحمد الصقلي.

ومن أهم أنواع السفن البحرية في الأسطول الإسلامي الشونة، وهي مراكب كبيرة، والحراقة لحمل المنجنيقات، والطرادة وهي سفن صغيرة وسريعة، وأما

(١) المقريزي، خطط المقريزي ج١/ ٦٠١، ج٢/ ١٩٤.
المقريزي، السلوك ج١ ق٢/ ٤٤٧.
(٢) أبو المحاسن، النجوم الزاهرة ج٧/ ١٤٧.
(٣) حسين مؤنس، تاريخ المغرب/ ٢٧١.

حمولة هذه السفن الحربية فأهمها الكلاليب، وهي خطاطيف من الحديد، لرميها على سفن العدو لجرها إلى السفن الإسلامية، والباسليقات، وهي سلاسل في رؤوسها رمانه من الحديد لرسو السفن، والتوابيت، وهي صناديق تملأ بالحجارة لرميها على العدو، وقوارير النفط، لإشعالها ورميها على العدو، وجرار النورة، وهي مساحيق ناعمة من الكلس والزرنيخ ترمى على العدو فتعميهم بغبارها، وقدور الحيات والعقارب لرميها على العدو لإشغاله بها، وقدور الصابون لقذفها عليهم فتتزلق بها أقدامهم فلا يقدرون على الثبات.

السياسة والإدارة في الدولة الإسلامية

انتظمت حياة المسلمين في المدينة بعد هجرة الرسول ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم إليها، وأقام الرسول ﷺ دولة الإسلام هناك على أساس تبليغ الإسلام ابتداء من العرب في الجزيرة العربية وإلى الناس كافة خارج الجزيرة العربية ومحاربة الشرك بكل صوره وأشكاله.

وابتدأ الرسول ﷺ في المدينة المنورة بنبذ العصبية؛ فآخى بين المهاجرين والأنصار، وأقام مسجده لجمع الناس على الصلاة واستقبال الوفود وعقد الرايات وشرح تعاليم الإسلام وإرسال الرسائل إلى حكام عصره يدعوهم إلى الإسلام، فأرسل حاطب بن أبي بلتعه إلى المقوقس حاكم مصر، وشجاع بن وهب إلى الحارث بن أبي شمر الغساني، ودحية بن خليفة الكلبي إلى قيصر الروم، وسليط بن عمرو العامري إلى هوذة بن علي الحنفي، وأرسل عبدالله بن حذافة السهمي إلى كسرى ملك الفرس، وعمرو بن أمية الضمري إلى نجاشي الحبشة، وتكررت رسائله ﷺ إلى هؤلاء وغيرهم لتأكيد دعوته ونبوته وعالمية رسالته السماوية ووحدانية الله عز وجل[1].

وجلس أصحاب الرسول ﷺ حوله يدونون ويحفظون القرآن الكريم أولاً بأول لحظة نزول الآيات الكريمة، وكتبت الصحيفة، وهي وثيقة عهد وميثاق لتنظيم حياة أهل المدينة من مسلمين وغيرهم على أساس أن الرسول ﷺ هو مرجعهم جميعاً، كما بينت هذه الصحيفة ما لهم وما عليهم من واجبات وحقوق، كما اهتم الرسول ﷺ بتشكيل نواة للجيش للدفاع عن دين الله، ولم

(١) الطبري، تاريخ الرسل والملوك ج٢/ ٦٤٤.

يهمل آراء أصحابه، فكان يستشيرهم ويأخذ بآرائهم، وكان زيد بن ثابت ترجمانه لغير العرب، كما استعمل الولاة على البلدان بعد انتشار الإسلام داخل الجزيرة العربية، وعقد اتفاقيات مع القبائل، فكان وفياً للعهد ولم ينتقم لنفسه في شيء قط إلا أن تنتهك حرمة من محارم الله، ولم يكن في عهده ﷺ دواوين أو سجلات لأسماء الجند وحفظ الأموال ومستحقات أصحابه، بل كان الصحابة يخرجون للقتال برغبتهم ثم يعودون إلى بيوتهم وأهليهم في نهاية الغزوات، ويأخذون من الغنائم والصدقات والزكوات والفيء دون تأخير، فأحب الصحابة رسولهم على أخلاقه العالية، وكانوا حوله يؤازرونه ويساعدونه بهمة وحماس لا نظير لهما أبداً.

ولم يختلف الأمر كثيراً بعد وفاة الرسول ﷺ في خلافة أبي بكر عما كان عليه الحال في عهد الرسول ﷺ، فقد كانت خلافة الصديق قصيرة، وانشغل في أكثرها في محاربة المرتدين إلى أن أرسل الجيوش إلى العراق وبلاد الشام لمواصلة الفتوحات فيها، وكان لأبي بكر مجلس شورى يأخذ برأيه وهم: عمر وعثمان وعلي وعبدالرحمن بن عوف ومعاذ بن جبل وأبيّ بن كعب وزيد بن ثابت، كما اتخذ له كتّاباً يكتبون رسائله إلى قادة الجيوش داخل وخارج الجزيرة العربية، كما وزع الولاة على بلدان الجزيرة العربية[1].

(١) فتحية النبراوي، تاريخ النظم والحضارة الإسلامية/ ٨٤ .

الإدارة وتأسيس الدواوين في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه:

ورد في القاموس المحيط عن تعريف الديوان بأنه مجتمع الصحف والكتَّاب يكتب فيه أهل الجيش وأهل العطيه والجمع دواوين[١].

وعرفه الماوردي فقال: «والديوان موضوع لحفظ ما يتعلق بحقوق السلطنة من الأعمال والأموال ومن يقوم بها من الجيوش والعمال»[٢].

ويدخل في هذه التسمية كتَّاب الرسائل ومكان جلوسهم والنظر في العساكر وإقطاعاتهم حسب تعريف ابن خلدون لهذه الدواوين، فيقول: «وهي القيام على أعمال الجبايات وحفظ حقوق الدولة في الدخل والخرج، وإحصاء العساكر بأسمائهم وتقدير أرزاقهم وصرف أعطياتهم في إباناتها، والرجوع في ذلك إلى القوانين التي يرتبها قومة تلك الأعمال وقهارمة الدولة، وهي كلها مسطورة في كتاب شاهد بتفاصيل ذلك في الدخل والخرج مبني على جزء كبير من الحساب لا يقوم به إلا المهرة من أهل تلك الأعمال، ويسمى ذلك الكتاب بالديوان، وكذلك مكان جلوس العمال المباشرين لها»[٣].

وقد تغيرت الظروف في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه عما كان عليه الحال قبل ذلك، فقد توسعت الفتوحات الإسلامية وبنيت المدن خارج الجزيرة العربية؛ فاحتاج الأمر لنظم وضوابط جديدة للخراج والجزية والجند

(١) القاموس المحيط ج٤/ ٢٢٦ .
(٢) الماوردي، الأحكام السلطانية/ ١٩٩ .
(٣) ابن خلدون، المقدمة/ ٢٤٣ .

وإرسال المعلمين والفقهاء والولاة والقادة، فسمح الخليفة عمر بن الخطاب بإعداد دواوين لمعالجة هذه القضايا الجديدة، وقد وضعت هذه النظم بحيث لا تختلف مع تعاليم الإسلام ولا تتناقض معه، بل تخدمه وتخدم مصالح المسلمين في حياتهم فيما يتعلق بالبناء ونظم الجيوش والقتال وبيت المال والحصون والقلاع وغير ذلك، يقول الماوردي في بيان سبب وضع عمر بن الخطاب لهذه الدواوين: «إن سببه أن أباهريرة رضي الله عنه قدم عليه -أي على عمر- من البحرين، فقال له عمر: ماذا جئت به؟ فقال: خمسمائة ألف درهم. فاستكثره فقال له: أتدري ماذا تقول؟ قال: نعم. مائة ألف خمس مرات، فقال عمر: أطيب هو؟ فقال: لا أدري، فصعد عمر المنبر فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أيها الناس قد جاءنا مال كثير، فإن شئتم كلنا لكم كيلاً، وإن شئتم عددنا لك عداً، فقام إليه رجل فقال: يا أمير المؤمنين، رأيت الأعاجم يدونون لهم ديواناً فدون أنت لنا ديواناً»[1] فاستشار الخليفة عمر أصحابه فأشاروا عليه بأن يفعل ذلك[2]، يقول الطبري: «في هذه السنة -١٥هـ- فرض عمر للمسلمين الفروض ودون الدواوين وأعطى العطايا على السابقة»[3].

وقد بدأ عمر بتدوين عدة دواوين منها:

١- **ديوان الاستيفاء:** ويتعلق بواردات الدولة الإسلامية من العراق وفارس وبلاد الشام ومصر من جباية الأموال وخراج الأرض والفيء والغنيمة والصدقات والزكوات، وكانت لغة التدوين في الشام باللغة الرومية، وديوان العراق بالفارسية، وديوان مصر بالقبطية، وظل التدوين بهذه اللغات إلى خلافة عبدالملك بن مروان، حيث أمر بتعريبها وعدم التدوين بغير العربية.

(١) الماوردي، الأحكام السلطانية/ ١٩٩.
(٢) الطبري، تاريخ الرسل والملوك ج٥/ ٢٣.
(٣) الطبري، نفس المصدر ج٣/ ٦١٣.

٢- **ديوان الأعطيات:** حيث صنف الخليفة عمر الناس في استحقاقاتهم على درجات حتى لا يساوي بين الناس في العطاء، فبدأ ببني هاشم ثم بمن يليهم من بطون قريش، ثم يأتي بعدهم الأنصار، كما فضل الناس بحسب أسبقيتهم إلى الإسلام منطلقاً من المبدأ الذي أقره حين قال: «لا أساوي من قاتل وهاجر مع الرسول ﷺ بمن لم يقاتل أو تأخر».

ومن هنا فإن الخليفة عمر قد قسم الناس إلى فئات تستحق العطاء على حسب النسب المتصل بالرسول ﷺ والسبق إلى الإسلام والذين جاهدوا الأعداء من السابقين الأولين في الغزوات الأولى كبدر وأحد والأحزاب والحديبية وفتح مكة، وقد قال عمر قولته المشهورة: «والله لا أجعل من قاتل رسول الله ﷺ كمن قاتل معه».

وقد شمل العطاء الرجال والنساء والأطفال، من ذوي السوابق في الإسلام وولاة الأمور والعلماء والمجاهدين وذوي الحاجات، ووافقه الصحابة على هذا التصنيف[١] وقد كلف الخليفة عمر بن الخطاب لتنظيم الدواوين على هذا الأساس عقيل بن أبي طالب ومخرمة بن نوفل وجبير بن مطعم سنة ٢٠هـ[٢].

وتولى إدارة بيت المال في خلافة عمر عبدالله بن مسعود، وعبدالرحمن بن عبدالقاري، ومعيقب بن أبي فاطمة الدوسي، وعبدالله بن الأرقم[٣].

٣- **ديوان الجند:** وقد أصبح هذا الديوان مهماً في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه بعد تواصل القتال خارج الجزيرة العربية أياماً وشهوراً وسنين دون

---

(١) أبو يوسف، كتاب الخراج/ ٤٠ - ٤٧.
ابن تيمية، السياسة الشرعية/ ٤٨.
(٢) ابن سعد، الطبقات الكبرى ج٣/ ٢٨٢.
الماوردي، الأحكام السلطانية/ ١٩٩ - ٢٠٠.
ابن خلدون، المقدمة/ ٤٤٢.
(٣) أبو عبيد، الأموال/ ٩٦، ٥٢٠، ابن الجوزي، تاريخ عمر بن الخطاب/ ١٢٦- ١٣٢، البيهقي، السنن الكبرى ج٦/ ٣٥٧.

انقطاع، فتغيب هؤلاء الجنود عن أهليهم وبلادهم، واستدعى الأمر تنظيم شؤونهم ومرتباتهم ونفقاتهم ونفقات أهليهم لانقطاع الجيوش إلى الجهاد مع مراعاة فوارق مختلفة في تنظيم الجند من حيث البلوغ والحرية والإسلام والسلامة من الآفات والإقدام في الحروب، وعلى حسب النسب من القبائل ومدى القرابة من الرسول ﷺ، ويترتب في ترتيب الأولويات في قوائم الجند عدد من يعول الجندي من الذراري وما يرتبطه من الخيل والموضع الذي يقاتل فيه من الغلاء والرخص والتفرغ التام للجندية والجهاد دفاعاً عن الاسلام فإذا مات الجندي في سبيل الله ورث أبناؤه عطاءه وهو دَيْن لورثته في بيت مال المسلمين.

وأما بالنسبة إلى العملات المتداولة عند المسلمين فكانت عملات فارسية ونقود حميريه قديمة بالدراهم ودنانير بيزنطية[1]، وفي عهد الخليفة عمر بن الخطاب ضرب الدراهم على الطراز الفارسي بعباراتها الفارسية، وأضاف إليها بعض العبارات العربية كقول «جائز» وغير أوزانها بما يتناسب مع صرف الزكاة، كما استمر التعامل بالدنانير البيزنطية إلى خلافة عبدالملك بن مروان حيث قام بتعريب العملات وصك عملات إسلامية، وألغى الطرز الفارسية والبيزنطية واستبدلها بعبارات وطرز إسلامية[2].

(١) ناهض القيسي، موسوعة النقود العربية والإسلامية/ ٢٢- ٢٨.
(٢) يوسف العش، الدولة الأموية/ ٢٣٤.

تعريب الدواوين في خلافة عبدالملك بن مروان سنة ٧٤هـ

استمرت الكتابة في الدواوين التي أنشأها الخليفة عمر بن الخطاب في البلاد المفتوحة خارج الجزيرة العربية بلغة هذه البلاد التي كانت سائدة قبل الإسلام على أيدي أهل الذمة من هذه البلدان نفسها، فكانت الكتابة في العراق وفارس باللغة الفارسية، وفي مصر باللغة القبطية واليونانية، وفي بلاد الشام باللغة الرومانية، كما استمرت الدواوين نفسها التي أسسها الخليفة عمر بن الخطاب فيما يتعلق بالجند والخراج وبيت مال المسلمين والعطاء إلى خلافة عبدالملك بن مروان، باستثناء بعض التنظيمات الإدارية التي أضافها الخليفة معاوية بن أبي سفيان مثل: ديوان الخاتم والبريد لتنظيم كل ما يصدر عن الخليفة من مراسلات وختمها، بسبب ما كان يحصل من زيادات أو نقصان في المكاتبات[1].

وفي خلافة عبدالملك بن مروان (٦٥-٨٦هـ) استقرت الدولة الإسلامية في بلاد مترامية الأطراف شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً إلى حدود الهند شرقاً وإلى شمال إفريقيه غرباً وإلى حدود بلاد الروم شمال بلاد الشام، وأصبحت عاصمة الدولة الأموية دمشق زينة البلدان، واستحدثت دواوين جديدة كديوان الرسائل والبريد في الولايات الإسلامية، إضافة إلى اتساع الدواوين السابقة، وانتشر الإسلام بين الأعاجم، وانتشرت اللغة العربية بجانب انتشار الدين الإسلامي لارتباطهما الوثيق بجانب بعضهما البعض لفهم الآيات وأحكام الدين وسنة الرسول ﷺ، وورث المسلمون حضارات قديمة، وأصبحت مكانة الدولة الإسلامية الأولى بين الأمم، وأصبح العرب هم السادة والقادة، فنظر الخليفة

(١) الجهشياري، الوزراء والكتاب/ ٢٤ ـ ٢٥ .

عبدالملك بن مروان إلى أن كتابة الدواوين الإسلامية في سائر أنحائها بلغات مختلفة غير اللغة العربية يضعف من سيادة الدولة على أراضيها ورعاياها، ويضعف من ارتباط هذه البلدان ببعضها البعض، ورأى أنه لا بد من توحيد لغة التدوين، وأن تكون هذه اللغة هي العربية. فأرسل الخليفة عبدالملك بن مروان سنة ٧٤هـ أمراً إلى ولاة العراق وبلاد فارس وبلاد الشام ومصر ليبدؤوا التدوين بالعربية وبتعريب جميع الدواوين السابقة التي كتبت بغير اللغة العربية.

وكانت مسؤولية الدواوين في الشام يتقلدها سرجون بن منصور النصراني وهو من نصارى الأردن، ودخل الإسلام؛ فأمر الخليفة عبدالملك بن مروان تقليدها إلى سليمان بن سعد الخثعمي[١].

وأرسل عبدالملك بن مروان إلى والي العراق وبلاد فارس وخراسان الحجاج ابن يوسف الثقفي وكان مقيماً بالكوفة، أرسل إليه بعزل المتولي على دواوين تلك البلاد زادان فروخ وإلغاء التدوين بالفارسية وتعريب الدواوين السابقة، فقام الحجاج بن يوسف الثقفي بعزل زادان وعين مكانه صالح بن عبدالرحمن، حيث بدأ عهد جديد من التدوين في العراق وشرقها باللغة العربية[٢]، كما أرسل الخليفة عبدالملك بن مروان إلى ابنه عبدالله الذي كان والياً على مصر لكي يبدأ بالتعريب والتدوين باللغة العربية، فنفذ عبدالله رغبة أبيه وأسند مسؤولية الدواوين إلى ابن يربوع الفزاري[٣]، وقد أدى هذا العمل الذي قام به عبدالملك

(١) البلاذري، فتوح البلدان/ ٢٧٢ .
الجهشياري، الوزراء والكتاب/ ٤٠ .
كرد علي، الإدارة الإسلامية/ ٨٩ .
(٢) البلاذري، فتوح البلدان/ ٤٢١ ، الصولي، أدب الكتاب/ ١٩٢ ، المقريزي، المواعظ والاعتبار ج٣/ ٥٩ ، الجهشياري، الوزراء والكتاب/ ٣٨ .
(٣) المقريزي، المواعظ والاعتبار ج٣/ ٥٨ .

ابن مروان إلى انتشار اللغة العربية وسيادتها، واضطر أهل الذمة أن يتعلموا اللغة العربية ليستمروا في عملهم السابق في التدوين، وتطورت الكتابة باللغة العربية فظهرت أنواع مختلفة من الخطوط العربية.

تعريب السكة (العملات الإسلامية):

استمر التعامل بالدراهم الفارسية والدنانير البيزنطية في فجر الإسلام، وظلت هذه الدراهم والدنانير على شكلها وطرزها الفارسية والبيزنطية، مع ما أضاف إليها الخليفة عمر بن الخطاب من تعديلات في أوزانها بما يتلاءَم مع الصرف عند المسلمين في زكاة النقدين الذهب والفضة[1]، وقد استمر هذا التعامل بهذه العملات إلى خلافة عبدالملك بن مروان حين أمر بتعريب الدواوين وتعريب العملات الإسلامية بطباعة إسلامية كاملة سنة ٧٤هـ؛ لتدعيم الاقتصاد الإسلامي، وبنيت دور الضرب في الولايات الإسلامية، حيث طُبِعت الدنانير والدراهم تحت إشراف الخلافة الإسلامية.

وتقول الروايات: إن الروم كانوا يأخذون ورق البردي من مصر للكتابة عليه، فأمر عبدالملك بن مروان أن يكتب على صحائف البردي «شهد الله أن لا إله إلا هو» فغضب ملك الروم جستنيان الثاني لذلك، فهدد بأن يطبع على الدنانير الرومية والتي يستخدمها المسلمون عبارات قذف بحق الرسول ﷺ؛ فقرر عبدالملك بن مروان أن يضرب السكة الإسلامية ليستقل عن الدنانير الرومية[2].

---

(١) عبدالرحمن فهمي، النقود العربية ماضيها وحاضرها/ ١٠، محمد باقر الحسيني، تطور النقود العربية الإسلامية١٩/ ، ناهض القيس، موسوعة النقود العربية والإسلامية/ ٢٢- ٢٨ .
يوسف العش، الدولة الأموية/ ٢٣٤ .

(٢) الدميري، حياة الحيوان/ ٩١ -٩٤ .

واتخذت الدنانير الجديدة شكلاً مناسباً لأحكام الإسلام، فحذف الجزء الأعلى من الصليب الموجود على ظهر الدينار وحذف صورة الملك هرقل، وكتبت عبارات مختلفه على طرفي العلمة ووجهيها فعلى الوجه الأول: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وعلى الوجه الآخر: الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد، وعلى طوق الوجه الأول (الإطار) محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق، وعلى طوق الوجه الثاني (الإطار الثاني) بسم الله ضرب هذا الدينار في سنة٧٧هـ، ويزن هذ الدينار ٢٥ , ٤ غم، ويعادل مثقالاً واحداً[١].

كما أمر الخليفة عبدالملك بن مروان بتعريب الدراهم الفارسية، فكان أول صك لها بتاريخ ٧٨هـ، وعلى وجهها الأول لاإله إلا الله وحده لا شريك له، وعلى الوجه الآخر الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد.

وعلى الطوق الأول محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون، وعلى الطوق الثاني، بسم الله، ضرب هذا الدرهم في سنة ثمان وسبعين، وكان الضرب قد بدأ في أرمينيه ثم في دمشق والبصرة والكوفة والقيروان بالمغرب والأندلس[٢].

ثم توسعت دائرة الدواوين بعد التوسع في الفتوحات في خلافة الوليد بن عبدالملك في مجال ديوان الجند وديوان الخراج وديوان الرسائل وديوان الخاتم وديوان البريد، ثم أضيف إليها ديوان الأوقاف في خلافة هشام بن عبدالملك (١٠٥-١٢٥هـ)[٣]، وعندما تولى عمر بن عبدالعزيز الخلافة سنة ٩٩هـ وجد سجلات تتعلق بإقطاعات وهبها الخلفاء الأمويون السابقون لبني أميه؛ فقام

(١) الماوردي، الأحكام السلطانية/ ١٥٤ ، ابن خلدون، المقدمة/ ١٦٢ .
(٢) ناهض القيسي، موسوعة النقود العربية والإسلامية/ ٣١ - ٣٤ .
(٣) أبو زيد شلبي، تاريخ الحضارة الإسامية/ ١١٠ .

بتمزيقها، ورد تلك الإقطاعات إلى أصحابها، وقد ورد عنه قوله: «إن السابقين أعطوا عطايا ما كان لهم أن يعطوها، وما كان لها أن تقبل، وإني قد بدأت بنفسي، فرددت الحقوق إلى أصحابها، رددت القطائع والأموال إلى بيت مال المسلمين، وثنيت بأهلي، اقرأ يا مزاحم»[1]. فأخذ مزاحم يقرأ سجلاً سجلاً ثم يأخذه عمر فيمزقه ويعلن عودة الأرض إلى بيت المال أياً كان المعطي وأياً كان المعطَى له، وأما الأرض المغتصبه والتي لا سجل لها فقد أعلن عمر عودتها إلى أصحابها أو إلى بيت المال إن لم يكن لها صاحب، وسماها أموال المظالم، وتوسل إليه الأمويون بعمته فاطمة بنت مروان فلم ينجح فيه شيء وقال لهم: «لتدعني وإلا ذهبت إلى مكة فنزلت عن هذا الأمر (الخلافة) لأحق الناس به وقال: «والله لو أقمت فيكم خمسين عاماً ما أقمت فيكم إلا ما أريد من العدل»[2].

وفي العصر العباسي اتسعت دائرة الدواوين بعدما اتخذ العباسيون من بغداد عاصمة لهم وهي قريبه من بلاد فارس، واستمال العباسيون إليهم الفرس واستعانوا بهم في إدارة شؤون البلاد، واتخذوا من أسرة البرامكة وزراء وحجاب وكتبةً فنظموا دواوين الدولة واهتموا بها[3]، وأصبح لكل ناحية من البلاد ديواناً خاصاً لتسهيل المتابعة والمراسلة ومعالجة شؤونها بعدما انتشرت الفتن والفرق والمارقين على الخلافة العباسية؛ فأصبح للمشرق ديوان، وللمغرب ديوان آخر، ولمصر ديوان ثالث؛ وهكذا كل النواحي الأخرى، كما توزعت

(١) مزاحم: كان غلاماً لعمر بن عبدالعزيز يستعين به في قضاء حوائجه.
(٢) ابن الأثير، الكامل ج٥/ ٣٠.
ابن كثير، البداية والنهاية ج٩/ ٢٠٠ - ٢١٣.
(٣) الماوردي، الأحكام السلطانية/ ٦٦- ٦٧.

الدواوين المتعلقة بالجند في كل إقليم من أقاليم الدولة ودواوين بيت المال والخاتم والبريد لمتابعة الأخبار في كل بلد من ا لبلدان، فهذا المنصور يوصي ابنه المهدي بالدواوين فيقول له: «انظر إلى هذا السفط فاحتفظ به، فإن فيه علم آبائك ما كان وما هو كائن إلى يوم القيامة، فإن أحزنك أمر فانظر في الدفتر الكبير، فإن أصبت فيه ما تريد وإلا ففي الثاني والثالث -حتى بلغ سبعة-، فإن ثقل عليك فالكراسة الصغيرة، فإنك واجد فيها ما تريد»[1].

(١) ابن الأثير، الكامل ج٦/ ١٨ .

obeikandl.com

الإمارة على البلاد (حكام الأقاليم)

أو ما يطلق عليها الولايات الإسلامية

حكام الأقاليم نواب ينتدبهم خليفة المسلمين نيابة عنه في إدارة شؤون الولايات الإسلامية فيمتثلون أمره فيما يوليهم إياه، وله أن يعزلهم ويقيم مكانهم حكاماً آخرين في أي وقت يشاء.

وقد ولّى الرسول ﷺ هؤلاء الحكام (الولاة) على البلدان في الجزيرة العربية بعد فتح مكة، فكان له العلاء بن الحضرمي على البحرين، وزياد بن لبيد على حضرموت، والمهاجر بن أبي أمية على صنعاء، وعتاب بن أسيد بن أمية على مكة، وعثمان بن أبي العاص على الطائف[1].

وكانت مهمة هؤلاء إمامة الناس في الصلاة وجمع الصدقات، ولم تكن لهم مهمة الجهاد؛ لأن الإسلام بدأ ينتشر عن طريق الوفود ودون قتال بعد فتح مكة، وكان الرسول ﷺ يختار هؤلاء الولاة ممن يعرفون بالتقوى والورع ومعرفة أحكام الدين.

وقد تقاضى هؤلاء الولاة أجورهم لتفرغهم للعمل على خدمة الدين ومقداره درهم واحد في كل يوم[2].

أما في خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه فقد كان الولاة هم القادة الذين وجههم الخليفة لمحاربة المرتدين داخل الجزيرة العربية، ومهمتهم إقامة الصلاة

(١) أبو زيد شلبي، تاريخ الحضارة الإسلامية/ ١٧٥.
(٢) أبو زيد شلبي، تاريخ الحضارة الإسلامية/ ١٧٥.

وجمع الصدقات والقضاء وإقامة الحدود ومحاربة المرتدين، ثم توسع الفتح خارج الجزيرة العربية؛ فكان كل قائد يتولى ولاية البلاد التي يتوجه إليها ويتم فتحها على يديه، فكان المثنى بن حارثة الشيباني متولياً أمر العراق، ثم أمده الخليفةأبوبكر بخالد ابن الوليد على أن يكون المثنى تبعاً له، ثم وجه الخليفة أبوبكر أربعة من القادة إلى بلاد الشام كل واحد منهم على جهة معينة على أن يكونوا كلهم تحت قيادة واحد منهم وهؤلاء هم: أبو عبيدة عامر بن الجراح وكانت وجهته شمال الشام في نواحي حلب وحمص وحماه وقنسرين، ويزيد بن أبي سفيان ووجهته إلى دمشق في وسط بلاد الشام، وشرحبيل بن حسنة إلى الأردن، وعمرو بن العاص إلى فلسطين على أن يكون أبو عبيده هو المرجع الأعلى لهؤلاء القادة[1].

وفي خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه تولى أمر البصرة عتبة بن غزوان، ثم تبعه المغيرة بن شعبة ثم أبو موسى الأشعري، وتولّى أمر الكوفة سعد ابن أبي وقاص وتلاه عمار بن ياسر، وتولى أمر البحرين أبو هريرة، وتولى أمر بلاد الشام أبو عبيدة عامر بن الجراح وكان يزيد بن أبي سفيان على دمشق ثم تلاه أخوه معاوية بن أبي سفيان إلى أن أصبح معاوية هذا والياً على جميع بلاد الشام، واستمر على ذلك حتى تولى الخلافة سنة ٤٠هـ، بينما تولى عمرو بن العاص ولاية مصر بعد أن سمح له الخليفة عمر بالمسير إليها وتم فتحها على يديه سنة ٢١هـ.

وكانت مهمة هؤلاء الولاة مواصلة الجهاد والفتوحات الإسلامية وتقسيم أربعة أخماس الأغنام على الجند وإرسال الخمس المتبقي إلى بيت مال المسلمين في المدينة وتسهيل الطرق والقضاء، والمحافظة على الأمن وإقامة الصلاة، فقد

(١) الأزدي، تاريخ فتوح الشام/ ٧.
خليفة بن خياط، تاريخ خليفة بن خياط/ ١١٩، الطبري، تاريخ الرسل والملوك ج٤/ ٣٠.

أرسل الخليفة عمر أبا موسى الأشعري إلى أهل البصرة ومعه الكتاب التالي إليهم يقول لهم فيه: «أما بعد، فإني قد بعثت أبا موسى أميراً عليكم ليأخذ لضعيفكم من قويكم، وليقاتل بكم عدوكم، وليدفع عن ذمتكم، وليحصي لكم فيئكم ثم ليقسمه بينكم، ولينقي لك طرقكم»[1].

وجاء عثمان بن عفان رضي الله عنه فغير الولاة في العراق ومصر واستبقى معاوية بن أبي سفيان على بلاد الشام، فتمرد على الخليفة عثمان بن عفان بعض الخارجين عن الجماعة الإسلامية في العراق ومصر، وجاؤوا إلى المدينة وحاصروا الخليفة في بيته حتى قتلوه غدراً وظلماً وزوراً وبهتاناً، كما قَتَلَ هؤلاء الخارجة الخليفة الراشدي الرابع علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وانتقلت الخلافة إلى بني أمية ابتداءً من الخليفة معاوية بن أبي سفيان الذي كان والياً على بلاد الشام منذ خلافة عمر بن الخطاب واتخذ من دمشق عاصمة له.

وقد ارتبطت الولايات الإسلامية مباشرة بالخليفة في دمشق، فقد اختار معاوية بن أبي سفيان للبصرة زياد بن أبيه، وللكوفة المغيرة بن شعبة، ثم حل محل زياد بن أبيه ابنه عبيدالله بن زياد، وعاد عمرو بن العاص إلى الفسطاط بمصر بعد أن كان عزل عنها في خلافة علي بن أبي طالب، وقد أصبحت مهمة ولاة العراق محاربة الخوارج والمتمردين والعصاة للقضاء عليهم، وواصل ولاة الأقاليم الأخرى مواصلة الفتوحات في إفريقية وشرق الدولة الإسلامية في نواحي خراسان.

ومن أشهر الولاة الذين واصلوا فتوحاتهم في شمال إفريقية عقبة بن نافع الفهري، وأبو المهاجر دينار، زهير بن قيس البلوي، حسان بن النعمان الغساني،

(١) محمد حميد الله، الوثائق السياسية/ ٤١٦.

موسى بن نصير، حتى اكتمل الفتح إلى ليبيا وإفريقية (تونس حالياً) والمغرب الأوسط (الجزائر حالياً) والمغرب الأقصى (المغرب حالياً) وشبه الجزيرة الإيبيرية التي أطلق عليها الأندلس بعد الفتح الإسلامي.

وكانت أخطر الولايات الإسلامية على الخلافة الأموية العراق وفارس لكثرة المتمردين والعصاة على الخلافة من الشيعة والخوارج.

ومن أهم الولاة في أرجاء الدولة الأموية الحجاج بن يوسف الثقفي والي العراق في خلافة عبدالملك بن مروان وابنه الوليد بن عبدالملك، وقتيبة بن مسلم الباهلي والي خراسان، وموسى بن نصير والي إفريقية، ومحمد بن القاسم الثقفي والي السند.

ومن أهم واجبات هؤلاء الولاة مواصلة الفتوحات الإسلامية، وتتبع الخارجين على الخلافة الأموية، بالإضافة إلى تلك المهمات التي كانت في خلافة الراشدين رضي الله عنهم.

أما في العصر العباسي فقد ارتبطت الولايات الإسلامية بعاصمة الخلافة في بغداد ارتباطاً وثيقاً لما عرف عنه الخلفاء العباسيون في العصر العباسي الأول من قوة وشجاعة.

أما في العصر العباسي الثاني الممتد من سنة ٢٣٢-٦٥٦هـ فقد ضعف شأن الخلفاء بسبب تدخل العنصر الفارسي ثم العنصر التركي بعد ذلك في شؤون الخلافة وإدارة الدولة الإسلامية، فظهر تبعاً لذلك إمارات ودويلات مستقله أو شبه مستقلة عن الخلافة العباسية؛ ومن هذه الدول في شرق الدولة الإسلامية: البويهيون، الغزنويون، السلاجقة، الخوارزميون، الإسماعيليون، كما قامت

دويلات أخرى في مصر وبلاد الشام مثل: النوريين في بلاد الشام، والطولونيين والإخشيديين والفاطميين بمصر، ثم الأيوبيين والمماليك بعد ذلك، كما ظهرت دول أخرى في المغرب والأندلس مثل: الإمارة الإموية في الأندلس ثم تحولت إلى خلافة، ثم إلى دول ضعيفة عرفت باسم دول الطوائف، وفي المغرب ظهرت دولة الأغالبة والرستميين والزيريين.

وقد فقد الخلفاء العباسيون السيطرة على هذه الدول فمنها ما كان يرتبط ارتباطا شكلياً بالخلافة العباسية ومنها ما كان مستقلاً عن الخلافة استقلالاً تاماً، ولقد ذهبت بعض هذه الدول إلى أكثر من الاستقلال فأعلنت الحرب على الخلافة العباسية كما هو الحال مع الدولة الخوارزمية والدولة الفاطمية.

أنواع الإمارة:

الإمارة نوعان:-

أولاً: الإمارة العامة.

ثانياً: الإمارة الخاصة.

أما الإمارة العامة فهي نوعان:

النوع الأول: إمارة الاستكفاء، وتأتي بتكليف من الخليفة، فبإذنه يتم هذا التعيين ضمن صلاحيات معينه وهي كما يلي:-

١- إعداد الجيوش للجهاد وترتيبهم في النواحي وتدبير أرزاقهم.

٢- النظر في الأحكام وتعيين القضاة.

٣ـ جباية الصدقات والخراج وتقليد العمال فيها.

٤ـ حماية الدين والذب عن الحريم.

٥ ـ إقامة الحدود في حق الله وحق الآدميين.

٦ـ الإمامة في الصلاة في الجمع والجماعات[١].

وأما الشروط التي يجب أن تتوفر في أمير الاستكفاء فهي: الحرية، والإسلام، والعلم بالأحكام الشرعية والمعرفة بأمري الخراج والحرب[٢].

وتتم طريقة تعيين أمير الاستكفاء من الخليفة بأن يقول له: أقررتك على ولايتك. أو قلدتك ناحية كذا وكذا[٣]، ومن أمثال هؤلاء الولاة عمرو بن العاص على مصر، المهلب بن أبي صفره على خراسان، الحجاج بن يوسف الثقفي على العراق.

ما يصح أن يفعله أمير الاستكفاء وما لا يجوز له أن يفعله:

- يجوز له أن يستوزر وزير تنفيذ بإذن من الخليفة أو دون إذن، ولا يجوز له أن يستوزر وزير تفويض إلا بإذن الخليفة.

- لا يجوز له أن يزيد في أرزاق الجند.

- لا يجوز له أن يفرض لجيش مبتدأ إلا بأمر.

- لا يعزل أمير الاستكفاء بموت الخليفة أما إذا كان معيناً من الوزير فيعزل بموت الوزير.

وينعزل الوزير بموت الخليفة وإن لم ينعزل الأمير؛ لأن الوزير نيابة عن الخليفة، والإمارة نيابة عن المسلمين[٤].

---

(١) الماوردي، الأحكام السلطانية/ ٣٠.
(٢) فتحية النبراوي، تاريخ النظم والحضارة الإسلامية/ ٧٧.
(٣) الماوردي، الأحكام السلطانية/ ٣٠.
(٤) الماوردي، الأحكام السلطانية/ ٣١- ٣٤.

النوع الثاني: إمارة الاستيلاء: وهي أن يستولي البعض بعامل القوة على منطقة معينة، ويعلن أحد القادة أنه يحكم هذه المنطقة التي استولى عليها كما فعل السلاجقة بقيادة زعيمهم طغرل بك حين استولى على خراسان من الغزنويين، والأغالبه في إفريقية بقيادة إبراهيم بن الأغلب، والبويهيون بفارس، والخوارزميون بخراسان، وقد اضطر الخلفاء أن يعترفوا بهذه الولايات منعاً للفساد[1]، وقد بين الماوردي سبعة أشياء تقع على عاتق المستولي على الإمارة وهي كما يلي:

١- حفظ منصب الإمامة.

٢- ظهور الطاعة الدينية التي يزول معها حكم العناد فيه، وينتفي بها إثم المباينة له.

٣- اجتماع الكلمة على الألفة والتناصر ليكون للمسلمين يد على من سواهم.

٤- أن تكون عقود الولايات الدينية جائزة والأحكام والأقضيه فيها نافذه لا تبطل بفساد عقودها ولا تسقط بخلل عهودها.

٥- أن يكون استيفاء الأموال الشرعية بحق تبرأ به ذمة مؤديها، ويستبيحها آخذها.

٦- أن تكون الحدود مستوفاة بحق وقائمه على مستحق.

٧- أن يكون الأمير في حفظ الدين ورعاً عن محارم الله يأمر بحقه إن أطيع ويدعو إلى طاعته إن عصى. فإن استوفى هذه الشروط جاز له أن يستوزر وزير تفويض ووزير تنفيذ[2].

(١) الماوردي، الأحكام السلطانية/ ٣٤.
(٢) الماوردي، الأحكام السلطانية/ ٣٤.

وأما الإمارة الخاصة فتقع ضمن حدود معينة بتكليف من الخليفة، وتقتصر على ما يلي:

١- تدبير الجيوش وسياسة الرعية وحماية البيضة والذب عن الحريم.

٢- ليس له أن يتعرض للقضاء والأحكام وجباية الخراج والصدقات.

٣- له أن يقيم الحدود فيما لم يقع فيه اختلاف أو افتقار إلى إقامة بينة لتناكر المتنازعين.

٤- له إقامة الصلاة، وله أن يسيِّر الحجيج[1].

(١) الماوردي، الأحكام السلطانية/ ٣٢-٣٣.

obeikandl.com

القضـــــاء

ومعناه لغة الحكم والأمر والإلزام.

قال تعالى: ﴿وقَضىَ ربُك ألا تَعْبُدُوا إلا إياهُ..﴾[1].

ومعناه في الاصطلاح: «الفصل بين الناس في خصوماتهم حسماً للتداعي وقطعاً للنزاع وفقاً للأحكام الشرعية من مصدريها الأساسيين، الكتاب والسنة».

وقد بدأ القضاء في الإسلام في المدينة المنورة على يد الرسول ﷺ وهو المرجع الأول والوحيد، فقد أكدت الصحيفة التي أملاها الرسول ﷺ في المدينة على أن مرجعية الخلاف بين سكانها هي إلى الرسول ﷺ. «وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده فإن مرده إلى الله عز وجل وإلى محمد رسول الله ﷺ[2]» وقد بينت الآيات الكريمات هذه المرجعية فقال تعالى: ﴿فَلا ورَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حتى يُحكِّمُوكَ فيما شَجَرَ بَينَهُم ثم لا يجدُوا في أنْفُسِهِم حرجاً مما قَضَيتَ ويُسَلِّمُوا تسليماً﴾[3].

وقال تعالى: ﴿وأنِ احكُم بينَهُم بِمَا أنْزَلَ اللهُ ولا تتبع أهواءَهم واحذَرْهُم أنْ يَفْتِنُوكَ عَن بَعْض ما أنْزَلَ اللهُ إليْكَ فإنْ تَوَلوا فاعلَم أنَما يُريدُ اللهُ أنْ يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِم وإن كَثيراً من الناسِ لَفَاسقُونَ﴾[4].

---

(١) سورة الإسراء/ ٢٣.

(٢) انظر نص الوثيقة كاملة: محمد حميد الله، الوثائق السياسية/ ٥٩ وما بعدها.

(٣) سورة النساء/ الآية ٦٥.

(٤) سورة المائدة/ ٤٩.

وقال تعالى: ﴿إنا أنْزَلْنَا إليْكَ الكتابَ بالحقِ لتَحْكُم بَيْنَ الناسِ بِمَا أراكَ اللهُ وَلا تَكُنْ للخَائِنينَ خَصِيماً﴾[1].

وقد أرسل الرسول ﷺ القضاة إلى أنحاء الجزيرة العربية، فأرسل معاذ بن جبل وأبا موسى الأشعري إلى اليمن، وأوصى القضاة قائلاً: «**يسروا ولا تعسروا وبشروا ولا تنفروا**»[2].

وأناب الرسول صلى الله عليه وسلم سعد بن معاذ ليحكم في بني قريظه بعدما تآمروا مع الأحزاب ضد المسلمين في المدينة، وكان بين بني قريظة والرسول ﷺ عهد وميثاق، فحكم فيهم سعد بن معاذ حكمه المعروف بقتل المقاتلة منهم وسبي الذرية، فنفذ الرسول ﷺ حكمه فيهم[3].

وفي خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه قضى بين الناس على أساس ما هو في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وكان يستشير أصحابه وفي مقدمتهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه[4]، وفي خلافة عمر بن الخطاب رضي اله عنه توسعت الدولة الإسلامية خارج الجزيرة العربية إلى العراق وفارس وبلاد الشام ومصر، فأسند الخليفة عمر رضي الله عنه القضاء في هذه البلدان إلى أصحابه نيابةً عنه، وكان يختارهم من أهل القوة والأمانة والورع والتقوى والذكاء والفطنة[5]. ومن هؤلاء القضاة أبو موسى الأشعري في البصرة، معاوية بن أبي سفيان وأبو عبيدة عامر بن الجراح ومعاذ بن جبل في بلاد الشام، وشريح في الكوفة، وعثمان بن قيس بن العاص في مصر.

(١) سورة النساء/ ١٠٥.
(٢) فتح الباري بشرح صحيح البخاري ٨/ ٤٩.
انظر: الماوردي، الأحكام السلطانية/ ٦٦- ٦٧.
(٣) فتح الباري بشرح صحيح البخاري ٥/ ٥٠.
(٤) ابن قيم الجوزية، إعلام الموقعين ١/ ٥٤.
(٥) ابن سعد، الطبقات الكبرى ج٣/ ٢٨٢.

وكان الخليفة عمر بن الخطاب يراسل هؤلاء القضاة ليبين لهم طريقة القضاء لشدة حرصه عى إقامة العدل بين الناس؛ ومن هذه المراسلات كتابه إلى أبي موسى الأشعري يقول له فيه «بسم الله الرحمن الرحيم من عبدالله عمر أمير المؤمنين إلى عبدالله بن قيس(أبي موسى الأشعري) سلام عليك، أما بعد. فإن القضاء فريضة محكمة وسنة متبعة؛ فافهم إذا أدلي إليك، فإنه لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ له. آس بين الناس في مجلسك ووجهك حتى لا يطمع شريف في حيفك، ولا ييأس ضعيف من عدلك. البينة على من ادعى واليمين على من أنكر.

الصلح جائز بين الناس، إلا صلحاً أحل حراماً أو حرم حلالاً.

ولا يمنعنك قضاء قضيته بالأمس فراجعت فيه نفسك وهديت لرشدك أن ترجع إلى الحق، فإن الحق لا يبطله شيء، واعلم أن مراجعة الحق خير من التمادي في الباطل. الفهمَ الفهمَ فيما يتلجلج في صدرك مما ليس فيه قرآن ولا سنة.

واعرف الأشباه والأمثال، ثم قس الأمور بعد ذلك، ثم اعمد لأحبها إلى الله وأشبهها بالحق فيما ترى. اجعل لمن ادعى حقاً غائباً أمداً ينتهي إليه، فإن أحضر بينة أخذ بحقه وإلا استحللت عليه القضاء.

والمسلمون عدول في الشهادة إلا مجلوداً في حد أو مجرباً عليه شهادة زور أو ظنيناً في ولاء أو قرابه، إن الله تولى منكم السرائر ودرأ عنكم بالبينات. وإياك والقلق والضجر والتأذي بالخصوم في مواطن الحق التي يوجب الله بها الأجر ويحسن الذخر، فإنه من صلحت سريرته فيما بينه وبين الله أصلح الله ما بينه وبين الناس، ومن تزين للدنيا بغير ما يعلم الله منه شانه الله، فإن الله لا يقبل من عباده

إلا ما كان خالصاً، فما ظنك بثواب عند الله في عاجل رزقه وخزائن رحمته. والسلام»[1].

وأرسل الخليفة عمر إلى معاوية بن أبي سفيان كتاباً يقول له فيه: «أما بعد، فإنني كتبت كتاباً في القضاء لم آلك ونفسي فيه خيراً، الزم خمس خصال يسلم لك دينك وتأخذ فيه بأفضل حظك، إذا تقدم إليك الخصمان فعليك بالبينة العادلة واليمين القاطعة، وادن الضعيف حتى يشتد قلبه وينبسط لسانه، وتعاهد القريب فإنك إن لم تتعاهده ترك حقه ورجع إلى أهله، فربما ضيع حقه من لم يرفع به رأسه، وعليك بالصلح بين الناس ما لم يستبن لك فصل القضاء»[2].

وأرسل الكتاب التالي إلى أبي عبيدة عامر بن الجراح في الشام: «أما بعد، فإني كتبت إليك بكتاب لم آلك ونفسي خيراً، الزم خمس خصال يسلم لك دينك وتحظ بأفضل حظيك. إذا حضرك الخصمان فعليك بالبينات العدول، والأيمان القاطعه، ثم أدن الضعيف حتى تبسط لسانه ويجترئ قلبه، وتعهد الغريب فإنه إذا طال حبسه ترك حاجته وانصرف إلى أهله، وإن الذي أبطل من لم يرفع به رأساً واحرص على الصلح ما لم يستبن لك القضاء. والسلام»[3].

وأرسل الخليفة عمر إلى شريح قاضي الكوفة:

«... اقض بما في كتاب الله، فإن لم يكن في كتاب الله فسنة رسول الله ﷺ، فإن لم يكن في كتاب الله ولا في سنة رسول الله ﷺ فاقض بما قضى به الصالحون، فإن لم يكن في كتاب الله ولا في سنة رسول الله ﷺ ولم يقض به

(١) محمد حميد الله، الوثائق السياسية/ ٤٢٧ وما بعدها.
(٢) محمد حميد الله، الوثائق السياسية/ ٤٣٧.
(٣) محمد حميد الله، الوثائق السياسية/ ٤٣٨.

الصالحون، فإن شئت فتقدم وإن شئت فتأخر ولا أرى التأخر إلا خيراً لك والسلام عليكم»[1].

وكان القضاة يتهيبون من هذه المهمة ويعتذر البعض منهم مزاولتها، فقد اعتذر كعب بن ضنه للخليفة عمر حين كلفه القضاء في مصر، كما اعتذر عبدالله بن عمر حين طلب منه الخليفة عثمان بن عفان أن يتولى القضاء، ورفض الإمام أحمد بن حنبل أن يتولى القضاء في خلافة المأمون.

القضاء في العصرين الأموي والعباسي:

تفرغ الخلفاء الأمويون لمتابعة سياسة الدولة وأعبائها من فتوحات وسد الثغور وملاحقة العصاة والمتمردين؛ فعينوا القضاة نيابة عنهم، غير أن بعض الخلفاء جلسوا لإنصاف الناس، وأول من جلس لذلك عبدالملك بن مروان وعمر بن عبدالعزيز.

وقد ظهر الاجتهاد فيما لا نص فيه قبل أن تظهر المذاهب الأربعة.

وفي العصر العباسي ظهرت المذاهب الأربعة في أقاليم الدولة الإسلامية وهي: مذهب الإمام أبي حنيفة، ومذهب الإمام أحمد بن حنبل، ومذهب الإمام الشافعي، ومذهب الإمام مالك. واتسعت سلطات القاضي فشملت الشرطة والمظالم والحسبة وبيت المال، واهتم الخلفاء العباسيون بتعيين القضاة على الأقاليم، وكان الولاة يحضرون مجالسهم لإعطائهم هيبة وسلطة تنفيذية، بل وزادوا من أرزاقهم[2].

(١) محمد حميد الله، الوثائق السياسية/ ٤٣٩.
(٢) الكندي، الولاة والقضاة/ ٤٢١.

الشروط التي يجب توفرها في القاضي:

- البلوغ، حيث لا تجوز في الصبيان؛ لأنهم لا يملكون الولاية على أنفسهم.
- الذكورة، فقد منع الأئمة الشافعي وأحمد بن حنبل ومالك قضاء المرأة وأجازها الإمام أبو حنيفة؛ لأنها في نظره نوع من أنواع الشهادة.
- الحرية، لأن المملوك لا يملك نفسه لإلزام المتخاصمين على قبول الحق.
- الإسلام، إذ لا يجوز لغير المسلم أن يقضي بالكتاب والسنة في القضاء.
- العقل بأن يكون صحيح التمييز جيد الفطنه.
- العدالة، مأموناً في الرضا والغضب.
- العلم، بأن يكون من أهل الاجتهاد عالماً بالأصول الشرعية وهي: القرآن الكريم والسنة والقياس والإجماع.
- سلامة الحواس، وهي السمع والبصر والنطق[1].

ما يجب على القاضي في القضاء:

١-السماع من الطرفين فقد أوصى الرسول ﷺ علي بن أبي طالب عندما أرسله قاضياً إلى اليمن فقال له: «**إن الله سيهدي قلبك ويثبت لسانك، فإذا جلس بين يديك الخصمان فلا تقضينَّ حتى تسمع من الآخر كما سمعت من الأول؛ فإنه أحرى أن يتبين لك القضاء**».

وقد كانت هذه القاعدة هي التي سار عليها علي بن أبي طالب في القضاء، فكان يقول: «إذا جاء أحد الخصمين وقد فقئت عينه فلا تقضي له حتى تسمع من

(١) الماوردي، الأحكام السلطانية/ ٦٦.

الآخر فقد تكون قد فقئت عيناه» وهكذا كان شريح في الكوفة عندما أرسله الخليفة عمر بن الخطاب قاضياً فيها، فقد جاءته أمرأة تبكي من زوجها فقال له أحد جلسائه: إنها مظلومة، فقال له شريح: إن إخوة يوسف جاؤوا أباهم عشاء يبكون وهم له ظالمون.

٢- العدل في القضاء بعد سماع القضية: قال ﷺ: «**القضاة ثلاثة، واحد في الجنه واثنان في النار، فأما الذي في الجنه فرجل عرف الحق فقضى به، وأما الذي في النار فرجل عرف الحق فجار في الحكم، ورجل قضى للناس على جهل فهو في النار**».

قال تعالى: ﴿**إنَ اللهَ يأمرُكُم أنْ تُؤدُوا الأماناتِ إلى أهلِها وإذا حَكَمتُم بين الناسِ أن تَحْكُمُوا بالعدلِ، إنَ اللهَ نِعمَّا يعظُكُم به إن اللهَ كانَ سَميعَاً بَصِيراً**﴾(١).

ولشدة أهمية القضاء يقول الرسول ﷺ: «**يدعى القاضي العدل يوم القيامة فيلقى من شدة الحساب ما يتمنى أنه لم يقض بين اثنين في عمره قط**».

٣- التوازن العقلي لفهم القضية ومعرفة أبعادها.

٤- فهم القضية بكل تفصيلاتها قبل الحكم فيها.

٥- أن يكون قليل الغضب ومتزناً ليسهل عليه فهم القضية.

٦- أن يكون قوي الشخصية حتى لا يخاف من آثار الحكم، قال تعالى: ﴿**فَلا تَخشَوا الناسَ واخشونِ ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً وَمَنْ لم يَحكُم بما أنزل اللهُ فأولئك هم الكافِرُون**﴾(٢).

---

(١) سورة النساء/ ٥٨.

(٢) سورة المائدة/ الآية ٤٤.

وقال تعالى: ﴿ ... أَتَخْشَوْنَهُم فاللهُ أحَقُ أن تخشوهُ إن كنتُم مؤمنين ﴾[1].

٧- أن لا يحب الشهرة حتى لا يميل إلى الهوى في حكمه.

٨- القدرة على التحذير قبل أن يدلي الخصمان بأقوالهما للزجر والتحذير من غضب الله، فقد جاء إلى الرسول ﷺ خصمان فقال إليهما الرسول قبل أن يسمع منهما: «**إنما أنا بشر مثلكم يوحى إليَّ وإنكم تختصمون إليَّ ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض، فأقضي له على نحو ما أسمع، فمن قضيت له من حق أخيه بشيء فلا يأخذه فإنما أقطع له قطعة من نار**».

٩- أن يطلب الشهود ويسمع منهم قبل الحكم في القضية، ولا يجوز للشاهد أن يكتم شهادته قال تعالى: ﴿ ... **ولا تَكتُموا الشهادةَ وَمَنْ يَكْتُمها فإنهُ آثِمٌ قَلبُهُ..** ﴾[2]. وقال الرسول ﷺ لأصحابه وهم جلوس بين يديه: «**ألا أنبئكم بأكبر الكبائر (قالها ثلاثاً) قالوا بلى يا رسول الله، قال: الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وكان متكئاً فجلس وقال ألا وشهادة الزور فما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت**».

وقد سمى الرسول ﷺ اليمين الكاذبه باليمين الغموس، لأنها تغمس صاحبها في نار جهنم.

(١) سورة التوبة/ الآية ١٣.
(٢) سورة البقرة/ ٢٨٣.

الكتابة وديوان الرسائل في الدولة الإسلامية

عندما بدأ الرسول ﷺ الدعوة إلى الاسلام بمكة المكرمة كان في قريش رجال يقرؤون ويكتبون منهم: أبو بكر الصديق، عمر بن الخطاب، عثمان بن عفان، علي بن أبي طالب، أبو عبيدة عامر بن الجراح، طلحه بن عبيدالله، يزيد بن أبي سفيان، معاوية بن أبي سفيان، أبوحذيفة بن عتبه بن ربيعة، حاطب بن عمرو، أبو سلمة بن عبدالأسد المخزومي، أبان بن سعيد بن العاص بن أميه وأخوه خالد ابن سعيد، عبدالله بن سعد بن أبي سرح العامري، حويطب بن عبدالعزى العامري، أبو سفيان بن حرب بن أمية، جهيم بن الصلت، العلاء بن الحضرمي، ومثل ذلك من أهل يثرب وقليل من نساء مكة والمدينة[1].

ثم انتشر الإسلام بالمدينة المنورة (يثرب)، وهاجر المسلمون الأولون من مكة إلى المدينة واختلطوا فيها بإخوانهم الأنصار، وتكوَّن من الكتَّاب الأولين كتبة الوحي وهم كما جاء ذكرهم في صبح الأعشى: أبو بكر الصديق، عمر بن الخطاب، عثمان بن عفان، علي بن أبي طالب، عامر بن فهيرة، خالد بن سعيد ابن العاص بن أمية، أبان بن سعيد بن العاص بن أميه، سعيد بن العاص بن أمية، عبدالله بن الأرقم الزهري، حنظلة بن الربيع الأسدي، أبيُّ بن كعب، ثابت بن قيس بن شماس، زيد بن ثابت، شرحبيل بن حسنة، معاوية بن أبي سفيان، المغيرة بن شعبة، جهيم بن الصلت، الزبير بن العوام، خالد بن الوليد، العلاء بن الحضرمي، عمرو بن العاص، عبدالله بن رواحة، محمد بن مسلمة، عبدالله بن

(١) البلاذري فتوح البلدان/ ٤٧١ - ٤٧٤.
أنظر أحمد أمين، فجر الإسلام/ ١٤١.

أبيّ، معيقب بن أبي فاطمة، طلحة بن زيد بن أبي سفيان، الأرقم الزهري، العلاء ابن عتبة، أبو أيوب الأنصاري، بريدة بن عبدالعزى، أبو سفيان بن حرب، حاطب بن عمرو، عبدالله بن سعد بن أبي سرح[1].

وقد ازدهرت الكتابة عند العرب بعد الإسلام في عهد الرسول ﷺ وخاصة في مدن: مكة، المدينة المنورة، الطائف، ليتمكن الناس من قراءة القرآن الكريم وفهم أحكامه، وحث الرسول ﷺ المسلمين على أن يتعلموا القراءة والكتابة، كما ازدهرت الكتابة في عهد الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم للحاجة الماسة إليها فيما يتعلق بدينهم وللمراسلات المتواصلة بين الخلفاء والقادة الذين خرجوا لمحاربة المرتدين والذين خرجوا للفتوحات الإسلامية خارج الجزيرة العربية في العراق وفارس وبلاد الشام ومصر وغير ذلك من البلدان الأخرى، وإزاء هذا التوسع في الفتوحات الإسلامية واتساع دولة الإسلام احتاج الأمر إلى تدوين الدواوين في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه ابتداء من ديوان الجند، ديوان الخراج، ديوان العطاء، وقد اتخذ أبو بكر الصديق عثمانَ بن عفان كاتباً له، وهو الذي كتب وصيته لعمر بالخلافة من بعده[2]، واتخذ الخليفة عمر بن الخطاب زيدَ بن ثابت كاتباً له.

ثم بدأ الخط العربي ينتشر ويرتقي إلى أنواع متعددة لكثرة استخدامه في الكتابة، واشتغل الكثير من أهل الذمة في الكتابة في الدواوين الإسلامية لعدم تفرغ العرب للكتابة وانشغالهم في الفتوحات والجهاد وأعمال الإدارة.

ثم جاء عصر التعريب على يد الخليفة الأموي عبدالملك بن مروان، واشتغل أناس كثيرون في التعريب والتدوين.

---

(١) القلقشندي، صبح الأعشى ج١/ ٩٢.
أحمد أمين، فجر الإسلام/ ١٤١- ١٤٢.
(٢) القلقشندي، صبح الأعشى ج١/ ٩٢.

وازدادت الحاجة إلى الكُتَّاب (النساخ) للخلفاء والأمراء والقادة لمخاطبة الملوك والأمراء والعمال والقادة وتدوين الحسابات والجند لأسمائهم ونفقاتهم وأعطياتهم وتسليحهم، وكتَّاب الشرطة والقضاء.

كما انتشر التأليف والترجمة والنسخ بأجر للمؤلفين والشعراء والأدباء، وامتلأت المكتبات والبيوتات بالمخطوطات الإسلامية، وتنافس أهل الأقطار باقتناء الكتب.

أما في العصر العباسي فقد توسعت المكتبات في بغداد والقاهرة وبلاد الشام والمغرب والأندلس ومدن فارس وخراسان؛ فامتلأت هذه المكتبات بالكتَّاب والمترجمين.

كما جلس الكتَّاب بين يدي السلاطين والحكام وعلا ذكرهم وارتفعت أجورهم[1]. وأصبح لهم ديوان خاص ورئيس للديوان يسمى صاحب الإنشاء، ومن أشهر هؤلاء الكتاب: عبدالحميد الكاتب، والربيع بن يونس، يحيى بن خالد البرمكي، وولديه جعفر والفضل[2]، وكان رئيس الديوان يختار كتابه ممن تتوفر فيهم المروءة والسمعة الطيبه والعلم والبلاغة باللغة العربية والفقه في الدين، وحسن الخط والأمانه، والمحافظة على السر، وممن هم من أهل النسب وعظماء القبيلة[3].

وفي دولة الترك بالمشرق كانت الكتابة عندهم لصاحب الإنشاء تحت يد أمير يعرف بالدويدار، كما اهتم الطولونيون بالكتابة فاتخذ أحمد بن طولون أبا جعفر محمد بن أحمد بن مودود وإسحق بن نصر العبادي كتبةً له يكتبون بين يديه.

(١) ابن خلدون، المقدمة / ٢٤٦-٢٤٧.
(٢) المصدر نفسه / ٢٤٧.
(٣) ابن خلدون، المقدمة / ٢٤٦-٢٤٧.

كما اهتم الفاطميون بالكتابة أيضاً فاتخذ العزيز بالله أبا منصور بن سوردين النصراني، واتخذ الحاكم بأمر الله القاضيَ أبا طاهر البهزكي، واتخد صلاح الدين الأيوبي القاضي الفاضل البيساني كاتباً ووزيراً، ثم فخر الدين بن لقمان بعد ذلك.

obeikandl.com

الوزارة

ولها عدة معانٍ منها: مطلق المؤازرة والمعاونة كما هو مأخوذ من قوله تعالى: ﴿واجعلْ لي وزيراً من أهلِي. هارونَ أخِي اشْدُدْ به أزرِي﴾[1] وتأتي بمعنى الملجأ؛ لأن الرعيه تلجأ إليه عند الحاجة. قال تعالى: ﴿كَلاَ لا وَزَرَ﴾[2]. وتأتي بمعنى الأعباء والمسؤوليات. قال تعالى: ﴿حَتَى تَضَعَ الحربُ أوْزَارَهَا﴾[3].

والوزير في النظام الإسلامي هو الشخص الذي يعطي الرأي والنصيحة للحاكم، ويقوم بأعمال يكلفه بها لتخفيف الأعباء عنه[4].

وقد ظهرت الحاجة إلى الوزراء منذ أقدم العصور، إذ لا يستطيع الحاكم أن يباشر أعباء الأمة بمفرده، فلا بد من المناصحة والمعاونة.

وفي الدولة الإسلامية تعد الوزارة أهم منصب بعد الخلافة؛ لأن الوزير ينوب عنه في تصريف شؤون البلاد في الرأي والتنفيذ، وهو أقرب الناس إلى الخليفة وأقربهم إلى قلبه وأعلمهم بأسرار الدولة وأعبائها، وعلى هذا الأساس حرص الخلفاء على اختيار وزرائهم على شروط منها: أن يكون حراً ذكراً، مسلماً، عالماً بالأحكام وأمور الحرب والخراج، ومن أهل الأمانة والصدق والنزاهة، محبوباً ذكياً.

وقد جاءت هذه الصفات في مقولة للخليفة المأمون: «إني التمست لأموري رجلاً جامعاً لخصال الخير ذا عفةٍ في خلائقه واستقامة في طرائقه، قد هذبته الآداب

(١) سورة طه/ ٢٩-٣١.
(٢) سورة القيامة/ ١١.
(٣) سورة محمد/ الآية ٤.
(٤) الماوردي، الأحكام السلطانية/ ٢٠.

وأحمكته التجارب، إن أوتمن على الأسرار قام بها، وإن قلد مهمات الأمور نهض فيها، يسكته الحلم، وينطقه العلم، وتكفيه اللحظة وتغنيه اللمحة، له صولة الأمراء، وأناة الحكماء وتواضع العلماء، وفهم الفقهاء، إن أحسن إليه شكر، وإن ابتلي بالإساءة صبر، لا يبيع نصيب يومه بحرمان غده، يسترق قلوب الرجال بخلابة لسانه وحسن بيانه»[1].

سلطات الوزير وحدود صلاحياته:

- ليس للوزير أن يعهد بولاية العهد.
- ليس له أن يستعفي من مهمته.
- ليس له أن يعزل من يقلده الخليفة.
- يختص الوزير بما يحدده له الخليفة من تدبير.
- الوزير مرجعه الخليفة يحاسبه ويقرر له.

تطور منصب الوزارة في الدولة الإسلامية:

استعان الرسول ﷺ بأصحابه في قيادة السرايا أحياناً وفي توصيل كتبه إلى حكام عصره لدعوتهم إلى الإسلام، كما استشارهم في أمور دنياهم، احتراماً لهم وتعويداً لهم على ممارسة الشورى، وأخذ بآرائهم، إلا أن الرسول ﷺ لم يحدد أحداً بعينه في المسؤولية والمشورة، ولم يقل لأحد من أصحابه أنت وزيري، ولم يكن لها ذكر في نبوته ﷺ.

(١) الماوردي، الأحكام السلطانية / ١٨.

وفي عهد الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم كانوا يشاورون أصحابهم من أهل الرأي دون تحديد لأحد معين بهذه المشورة أو أن يكون لأحد هذه المهمة بعينه، وهذا هو الطابع الذي غلب عليهم.

وقد ورد على لسان الخليفة أبي بكر رضي الله عنه أنه خاطب الأنصار في سقيفة بني ساعدة بعد وفاة الرسول ﷺ واجتماع الأنصار لاختيار خليفة منهم إذ قال لهم: «نحن الأمراء وأنتم الوزراء»(١).

وكان المقصود من ذلك مطلق المشورة وعدم أحقيتهم بالخلافة.

كما وردت هذه الكلمة على لسان الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين أرسل عمار بن ياسر وعبدالله بن مسعود لأهل الكوفة وخصهم بهذين الصحابيين الكريمين عن أهل المدينة لفضلهما وعلمهما لينتفع بهما أهل الكوفة فقال لهم: «أما بعد، فإني بعثتُ إليكم عماراً أميراً وعبدالله معلماً ووزيراً»(٢). وهي بمعنى المعاونة والمؤازرة لعمار بن ياسر، وخلاف ذلك فإن الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم لم يتخذوا لأنفسهم وزراء بالتحديد والتعيين.

العصر الأموي:

لم تنتشر عند الخلفاء الأمويين عادة اتخاذ وزراء معينين لمساعدتهم ومعاونتهم، غير أنهم اتخذوا الحجاب والولاة على الأقاليم وقادة الجيوش، وأما الوزارة فلم تأخذ شكلاً معيناً ذا طابع رسمي، وقد أطلق على ذي الرأي والمشورة عند الخلفاء الامويين الكاتب أو المشير(٣).

(١) ابن سعد، الطبقات الكبرى ج٣/ ١٨٢.
(٢) محمد حميد الله، الوثائق السياسية/ ٤١٦.
(٣) ابن الطقطقى، الفخري في الآداب السلطانية/ ١١١.

وقد اتخذ الخليفة عمر بن عبدالعزيز غلاماً له يدعى مزاحم لمساعدته في إصلاح السجلات وإعادة الأراضي لأصحابها ونزعها من غير مستحقيها، كما كان عمر بن عبدالعزيز يستعين بابنه عبدالملك ويستشيره ويسمع منه شكاوي قومه[1].

الوزارة في العصر العباسي الأول (١٣٢-٢٣٢هـ)

ارتفعت أهمية الوزارة عند العباسيين واستقر أمرها؛ وصارت إلى الوزير النيابة في كل شيء ما عدا الحجابة لاستنكافه عن مثل ذلك، وصارت إلى الوزير مسائل الحل والعقد، وأسند إليه النظر في ديوان الحسبان للحاجة إليه في أعطيات الجند، وصار اسم الوزير جامعاً لخطتي السيف والقلم وسائر معاني المؤازرة والمعاونة.

يقول ابن طباطبا في كتابه الفخري في الآداب السلطانيه: «والوزارة لم تتمهد قواعدها وتقرر قوانينها إلا في دولة بني العباس، فأما قبل ذلك فلم تكن مقننة القواعد، ولا مقررة القوانين، بل كان لكل واحد من الملوك أتباع وحاشية، فإذا حدث أمر استشار ذوي الحجا والآراء الصائبة، فكل منهم يجري مجرى وزير، فلما ملك بنو العباس تقررت قوانين الوزارة وسمي الوزير وزيراً، وكان قبل ذلك يسمى كاتباً أو مشيراً».

ويقول ابن خلدون: «ولما جاءت دولة بني العباس واستفحل الملك وعظمت مراتبه وارتفعت، عظم شأن الوزير، وصارت إليه النيابة في إنفاذ الحل والعقد، وتعينت مراتبه في الدولة، وعنت له الوجوه وخضعت له الرقاب، وجعل له النظر في ديوان الحسبان، لما تحتاج إليه خطته من قسم الأعطيات في الجند، فاحتاج إليه النظر في جمعه وتفريقه وأضيف إليه النظر فيه. . . . فصار اسم الوزير جامعاً لخطتي السيف

(١) ابن الأثير، الكامل ج٥/ ٣٠.
ابن كثير، البداية والنهاية ج٩/ ٢٠٠.

والقلم وسائر معاني الوزارة والمعاونة، حتى لقد دعي جعفر بن يحيى البرمكي بالسلطان في أيام الرشيد؛ وذلك إشارة إلى عموم نظره وقيامه بالدولة»[1].

وقد اعتمد الخلفاء العباسيون منذ بداية دولتهم على الفرس في تنظيم شؤون الدولة، فكان أول وزراء الدولة العباسية أبو سلمة حفص بن سليمان الخلال وهو فارسي الأصل، استوزره أبو العباس السفاح، ويطلق عليه البعض وزير آل محمد.

وهكذا ظل معظم الوزراء من الفرس أو الترك حتى سقوط الخلافة العباسية سنة ٦٥٦هـ[2].

ومن أبرز الأسر الفارسية التي علا نجمها عند العباسيين الأوائل أسرة آل برمك الفارسية، فكان منهم الوزراء والحجاب وأولو الرأي والمشورة، فاستبدوا بالأمر كثيراً من دون الخلفاء حتى نكبهم الخليفة هارون الرشيد عندما شك في نواياهم تجاه الخلافة الإسلامية[3]. ثم استوزر ابنه الأمين الفضل بن الربيع، واستوزر أخوه المأمون الفضل بن سهل وهو فارسي الأصل، وتلاه أحمد بن أبي خالد، ثم أحمد بن يوسف وهم من الموالي الفرس.

أما في العصر العباسي الثاني (٢٣٢-٦٥٦هـ):

فقد تغلب الفرس والترك على تصريف شؤون الدولة، وتعرض الخلفاء ووزراؤهم إلى الأذى والسجن، فنفر الناس من تقلد الوزارة خوفاً من المصير السيئ، فكان البعض يفضل أن يكون بزازاً أو عطاراً على أن يكون وزيراً[4].

---

(١) ابن خلدون، المقدمة/ ٦٠٦- ٦٠٧ .
(٢) القلقشندي، صبح الأعشى ج٣/ ٢٧٣ .
ابن خلدون، المقدمة/ ٢٣٨ .
(٣) السيوطي تاريخ الخلفاء/ ٩٧ .
(٤) التنوخي، نشوار المحاضرة ج١/ ٢٣٢ .

ثم تطور مسمى الوزير إلى لقب أمير الأمراء حين تفرعت الدويلات عن الدولة العباسية وظلت تابعة لها مثل دولة بني بويه ودولة بني حمدان شمال العراق ودولة السلاجقة والأيوبيين والمماليك والدولة الخوارزمية.

ومن أشهر الوزراء في العصر العباسي الثاني الوزير أبو الحسن علي بن محمد ابن الفرات في خلافة المقتدر (جعفر بن المعتضد ٢٩٥-٣٢٠هـ)[١] وابن مقلة في خلافة المقتدر بالله سنة ٣١٨هـ، وتلاه سليمان بن الحسن، الحسين بن القاسم، أبو القاسم الكلوذاتي، وابن رائق في عهد الراضي بالله ٣٢٢هـ ولقبه الخليفة أمير الأمراء وجعله أمير الجيوش وولاه الخراج وأنفذ إليه الخلع وأمر أن يخطب له على المنابر[٢].

هذا وقد وقعت الدولة العباسية في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي تحت نفوذ البويهيين وهم أسرة من الديلم ببلاد فارس وأشهر أبنائهم علي، أحمد، الحسن أبناء بويه بن فناخسرو، الذين استطاعوا إقامة دولة لهم في بلاد فارس وأجزاء من بلاد خراسان واعترف لهم الخليفة العباسي الراضي بالله (٣٢٢-٣٢٩هـ) بإدارة شؤون الدولة العباسية، ثم اعترف لهم الخلفاء بعد ذلك بهذه الإدارة، وتلقب أمراؤهم بالسلاطين حتى حل محلهم السلاجقة بعد ذلك[٣]، وقد اتخذ البويهيون لهم وزراء يستعينون بهم في تصريف شؤون الدولة وأصبح بيدهم مقاليد الأمور، وأصبح موقف الخلفاء ضعيفاً ولا يستطيعون الحد من صلاحيات هؤلاء السلاطين ووزرائهم[٤].

---

(١) مسكويه، تجارب الأمم ج١/ ٥٠٤.
(٢) ابن الأثير، الكامل ج٨/ ٣٢٢.
(٣) ابن الأثير، الكامل ج٨/ ٣١٢ - وما بعدها.
(٤) الطبري، تاريخ الرسل والملوك ج١١/ ٨٦.
ابن طباطبا، الفخري/ ٢١٥.

ومن أشهر وزراء البويهيين أبو محمد المهلبي، وأبو الفضل بن العميد، والصاحب ابن عباد[1]. ثم جاء السلاجقة نسبة إلى مؤسس دولتهم سلجوق بن دقاق الذي رحل بقبيلته التي تعود في أصلها إلى الترك، رحل بهم من نواحي الصين إلى بلاد ما وراء نهر جيحون وأقاموا بنواحي بخارى وجند، ثم انضمت إليهم جموع أخرى من الترك ودخلوا الإسلام فقوي شأنهم، فدخلوا بهذه الجموع إلى خراسان فاستولوا عليها من الغزنويين بعد معركة دندانقان سنة ٤٣١هـ/ ١٠٣٩م، وأعلنوا عن قيام دولتهم بزعامة طغرلبك السلجوقي، واتخذوا من مرو عاصمة لهم، واعترف بهم الخليفة العباسي القائم بأمر الله، فجاؤوا بعد ذلك إلى بغداد سنة ٤٤٧هـ وقضوا على بقايا البويهيين، وتوسع نفوذ السلاجقة إلى شمال العراق وبلاد الشام، وصرّفوا مقاليد الأمور في الدولة العباسية، وأعلنوا الجهاد ضد البيزنطيين، ومن أشهر سلاطينهم ألب أرسلان وابنه ملكشاه[2].

وقد تطورت الوزارة في العصر السلجوقي وخاصة عند سلاطين السلاجقة العظام (طغرلبك، ألب أرسلان، ملكشاه - ٤٣٥-٤٨٥هـ) فأصبح الوزير السلجوقي أكثر قوة ونفوذاً من الخليفة العباسي نفسه بسبب قوة السلاجقة وسيطرتهم على مقاليد الأمور، ومن أشهر وزراء الخلفاء العباسيين في هذه الفترة: أبو الفتح منصور بن أحمد بن دارست، أبو نصر محمد بن محمد بن جهير، أما وزراء السلاجقة فمن أهمهم: عميد الملك الكندري، نظام الملك الحسن بن علي الطوسي وهو من أعظم وزراء السلاجقة على الإطلاق[3]. وهكذا ظل

(١) محمد مسفر الزهراني، نظام الوزارة في الدولة العباسية/ ٩٧.
(٢) انظر: ارشيد يوسف، سلاجقة الشام والجزيرة/ ١٥ - ٢٥.
(٣) البنداري، تاريخ دولة آل سلجوق/ ٢١-٢٢.
ابن الأثير، الكامل ج ١٠ / ٢٩٨.

موقف الخلافة ضعيفاً بازدياد عدد الدول التي ظهرت بعد ضعف السلاجقة حين استقل أتابكتهم[1] بدول متعددة في نواحي خراسان والعراق وبلاد الشام، وظهرت الدولة الخوارزمية في خوارزم وخراسان، والبوريون والزنكيون، كما ظهرت دولة الفاطميين والأيوبيين والمماليك بمصر، والأمويين ودول الطوائف في الأندلس، وكان آخر وزراء العباسيين ابن العلقمي الذي تآمر على الخليفة العباسي المستعصم بالله (٦٤٠-٦٥٦هـ)، وتعاون مع المغول في سقوط بغداد بأيديهم سنة ٦٥٦هـ[2].

وقد اتخذ الفاطميون وزراء لهم وتلقبوا بألقاب الملوك منهم، أمير الجيوش بدر الدين الجمالي وزير المستنصر بالله، والملك الصالح طلائع، والملك المنصور، والملك العادل رزيك بن طلائع، والملك المنصور شاور، والملك المنصور ضرغام[3].

أما المماليك فقد ترفعوا عن اتخاذ وزراء لهم، وأصبح الناظر عندهم على الجند والأحكام يسمى النائب[4].

أما الأمويون في الأندلس فقد توسعوا في اتخاذ الوزراء، فجعلوا للرسائل وزيراً، وللمال وزيراً، وللنظر في أحوال المتظلمين وزيراً، وللثغور وزيراً، وعلا أمر الحجاب عليهم فكانوا يتابعون أعمالهم[5].

---

(١) أتابك، كلمة مركبة من لفظين تركيين، أتا ومعناها الأدب، بك بمعنى الكبير أو الجد، أما كلمة أتابك فقد استعملت بمعنى المؤدب ومربي الأولاد، وخاصة أولاد الأمراء والملوك لإعدادهم إلى المناصب العليا في الدولة. البستاني، دائرة المعارف، مادة أتابك ج٥/ ٤٨٧.

(٢) القلقشندي، صبح الأعشى ج٣/ ٢٧٣.

(٣) المقريزي، خطط المقريزي ج١/ ٤٣٨.

(٤) ابن خلدون، المقدمة/ ٢٣٩.

(٥) ابن خلدون، المقدمة/ ٢٣٩.

أقسام الوزارة:

تقسم الوزارة إلى نوعين هما: وزارة التنفيذ ووزارة التفويض.

أولاً: وزير التنفيذ: وهو صلة الوصل بين الخليفة والرعية، ومهمته تنفيذ أوامر الخليفة أو السلطان، ولا يتصرف إلا بإذن منه في كل أمر، وهذا النوع من الوزارة يقوم عندما يكون الخليفة أو السلطان قائماً على نفسه قادراً على إمساك زمام الأمور[1].

ثانياً: وزير التفويض: ويأتي هذا النوع بتفويض من الخليفة إلى وزيره بتدبير شؤون الدولة ومباشرة عمله دون استئذان من الخليفة، ومن هنا فإن هذا النوع من الوزارة يعد أخطر من وزارة التنفيذ وأشمل وأوسع صلاحيات منها، وهو يفسح المجال أمام استبداد الوزير والتغلب على كافة شؤون الدولة[2].

ويختلف وزير التفويض عن وزير التنفيذ بما يلي:

١- يجوز لوزير التفويض مباشرة الحكم والنظر في المظالم وليس ذلك لوزير التنفيذ.

٢- يجوز لوزير التفويض أن يستبد بتقليد الولاة وليس ذلك لوزير التنفيذ.

٣- يجوز لوزير التفويض تسيير الجيوش وليس ذلك لوزير التنفيذ.

٤- يجوز لوزير التفويض أن يتصرف في أموال بيت المال وليس ذلك لوزير التنفيذ.

---

(١) الماوردي، الأحكام السلطانية/ ٢١.

(٢) ابن خلدون، المقدمة/ ٢٣٩.

الحجـابـة

ويقـال لمن يتـولى أمـرها: الحـاجب، وهو الذي يقف على باب السلطان ليسمح بالدخول إليه والخروج منه، وهو بمثابة مدير المراسم أو رئيس التشريفات في وقتنا الحاضر.

ولم يتخذ الرسول ﷺ حجاباً له في مكة أو المدينة، فكان يستقبل الوفود في مسجده بالمدينة أو في حجراته، وليس له حراسة سوى أصحابه الذين كانوا يحيطون به من تلقاء أنفسهم، وقد جاءت الآيات الكريمة تحث على التأدّب في مخاطبته قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[1].

وكان للرسول ﷺ هيبة النبوة، فلا يتمكن منه أحد، فها هو أبو جهل يتقدم إليه ليؤذيه بمكة فلا يستطيع، وسراقة بن مالك يلحقه أثناء الهجرة فلا يتمكن منه، ولم يستخدم الخلفاء الراشدون رضي الله عنهم حجاباً، فكانوا يجالسون الناس في المسجد ويمشون في الطرقات نهاراً وليلاً يتفقدون أحوال الرعية.

(١) سورة الحجرات/ ١-٥.

وقد تعرض الخلفاء الثلاثة عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهم إلى مؤامرات قاتلة من جماعات ظالمة حاقدة، لم يدخل الإيمان في قلوبهم، فذهب أولئك الخلفاء ضحية هذه المؤامرات الغادرة.

وبعد ذلك في العصر الأموي بدأ الخلفاء يتخذون لهم حجاباً يقفون على أبوابهم ويمشون معهم في الطرقات من أمامهم ومن خلفهم لحمايتهم، وأول ما ظهرت هذه المهنة في خلافة معاوية بن أبي سفيان.

وقد أوصى عبدالملك بن مروان حاجبه فقال له: «قد وليتك حجابة بابي إلا عن ثلاثة، المؤذن للصلاة، فإنه داعي الله، وصاحب البريد فأمر ما جاء به، وصاحب الطعام لئلا يفسد»[1].

كما أوصى الخليفة عبدالملك بن مروان أخاه عبدالعزيز عندما كان والياً على مصر فقال له: «وانظر حاجبك فليكن من خير أهلك فإنه وجهك ولسانك، ولا يقفن أحد ببابك إلاّ أعلمك مكانه لتكون أنت الذي تأذن له أو ترده»[2].

وهكذا تواصل الخلفاء من الأمويين والعباسيين وغيرهم من السلاطين اتخاذ الحجاب لهم حين كثرت الفتن والفرق المتعددة، وأصبح الحجاب هم المتنفذون في الدولة وباستطاعتهم قتل الخلفاء أو خلعهم وإقامة آخرين مكانهم[3].

وفي الأندلس أصبح نفوذ الحاجب واسعاً لدرجة أنه حجب عامة الناس عن الخليفة وأصبح واسطة بينه وبين الوزراء ومن هؤلاء الحجاب جعفر بن عثمان

(١) ابن خلدون، المقدمة/ ٦٦٧ - ٦٦٨ .
(٢) الماوردي، الأحكام السلطانية/ ٩٢ .
(٣) المسعودي، التنبيه والإشراف/ ٣٦٦ .

المصحفي في خلافة المستنصر، وتلاه المنصور محمد بن أبي عامر الحاجب الذي استبد بالخليفة هشام المؤيد، ثم سقطت الخلافة الأموية في الأندلس سنة ٤٢٢هـ وتحولت إلى دول أطلق عليها دول الطوائف، فاستبد بالأمر أبناء المنصور بن أبي عامر في قرطبة وتوارثوا الحكم فيها فترة من الزمن.

وفي مصر اتخذ حكام العبيديين حجاباً يسيرون أمامهم في الطرقات لإعطائهم هيبة ووقاراً.

كما اتخذ المرابطون في المغرب والأندلس حجاباً لهم، كما اتخذ المماليكُ الحجاب من أهل الشوكة من الترك لتنفيذ الأحكام بين الناس[1].

(١) ابن خلدون، المقدمة/ ٢٤٠- ٢٤٢.

obeikandl.com

البريـــد

هي المسافة التي يقطعها حامل الرسائل في يوم واحد، ومقدارها اثني عشر ميلاً مقدرة بأربعة فراسخ(٢٠كم تقريباً).

نشأة البريد في الدولة الإسلامية:

تعامل الرسول ﷺ بالبرد لخدمة الدعوة الإسلامية، فراسل حكام عصره لدعوتهم إلى الإسلام، ومن هؤلاء الذين راسلهم واستقبل رسلهم: المنذر بن ساوى حاكم البحرين، وهرقل ملك الروم، ونجاشي الحبشة، والمقوقس حاكم مصر. وقد ورد عن الرسول ﷺ أنه قال: «**إذا أبردتم إلي بريداً فاجعلوه حسن الهيئة حسن الوجه**»(١).

وفي عهد الخلفاء الراشدين تطورت البرد كثيراً، فقد أرسل الخليفة أبو بكر الصديق قادة الجيوش لمحاربة المرتدين داخل الجزيرة العربية، وأرسل قادة الفتح إلى العراق وبلاد الشام، وكان يراسل هؤلاء القادة ويستقبل رسلهم لمتابعة جهادهم ضد المرتدين والدول المجاورة في بلاد فارس وبلاد الشام، ثم تواصلت هذه المراسلات في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه بسبب التوسع في الفتوحات وانتشار الجيوش الإسلامية في بلاد بعيدة، ومن أشهر هؤلاء القادة الذين جرت المراسلات بينهم وبين الخلفاء: أبو عبيدة عامر بن الجراح، عمرو بن العاص، خالد ابن الوليد، عكرمة بن أبي جهل، شرحبيل بن حسنة، معاوية بن أبي سفيان، سعد بن أبي وقاص.

(١) ابن الطقطقي، الفخري/ ٧٩، القلقشندي، صبح الأعشى ج١٤ / ٣٦٦.

وفي العصر الأموي اهتم الخلفاء بالبرد لنقل الأخبار من الولايات الإسلامية، فكانوا يستقبلون البريد صباحاً ومساءً في كل يوم، كما اهتم الخلفاء بتسهيل الطرق للبرد لتأمين وصول الأخبار بسرعة.

كما اهتم العباسيون كثيراً بالبرد للوقوف على أخبار الرعية وأخبار العدو وما يجري على حدود الدولة الإسلامية، فسهلت الطرق وبنيت لهم أماكن للراحة على مسافات معينة توفرت فيها المياه ووسائل الراحة، كما جعل الخلفاء للبريدي علامات تبين صدقه، يقول المنصور: «ما أحوجني إلى أن يكون على بابي أربعة نفر لا يكون على بابي أعف منهم، فقيل له: يا أمير المؤمنين من هم؟ قال: أما أحدهم فقاض لا تأخذه في الله لومة لائم، والآخر صاحب شرطة ينصف الضعيف من القوي، والثالث صاحب خراج يستقصي ولا يظلم الرعية فإني عن ظلمها غني، والرابع، ثم عض على إصبعه السبابة ثلاث مرات يقول في كل مرة آه آه. فقيل له: ومن هو يا أمير المؤمنين؟ قال: صاحب بريد يكتب إليَّ بخبر هؤلاء على الصحة»[1].

الغرض من البريد في الدولة الإسلامية:

أولاً: لخدمة الدعوة الإسلامية، فقد راسل الرسول ﷺ حكام عصره لدعوتهم إلى الإسلام وشرح لهم تعاليمه وطلب منهم أن يؤمنوا بوحدانية الله ونبوة محمد ﷺ وبالقرآن ينزل عليه من ربه بواسطة الوحي.

ثانياً: راسل أبو بكر الصديق زعماء القبائل التي ارتدت عن الإسلام وطلب منهم العودة إلى دين الله، وحذرهم بإعلان الحرب عليهم إذا لم يعودوا عن ردتهم. كما راسل الخليفة أبو بكر قادة الجيوش الذين أرسلهم لمحاربة هؤلاء المرتدين.

---

(١) الطبري، تاريخ الرسل والملوك ج٦/ ٣١٣.

ثالثاً: المراسلة بين الخلفاء وقادة الفتوحات الإسلامية لمتابعة فتوحاتهم وتوجيههم بخطط تساعدهم على عدوهم.

رابعاً: استخدم البريدي عيناً للاطلاع على أخبار العدو والثغرات الموجودة عنده للاستفادة منها، ولو أن هؤلاء البرد كانوا في ظاهرهم يحملون رسائل إلى الحكام والقادة.

خامساً: استخدم البريدي لنقل العلوم وترجمتها كما حصل في العصر العباسي.

سادساً: أصبح البريدي يحمل الرسائل لخدمة الناس للاتصال ببعضهم البعض.

أنواع الرسائل:

١- حامل الرسالة نفسه: يأخذها إلى جهة معلومة، فيستخدم دابة يركبها إلى المكان المعلوم كحاملي كتب الرسول ﷺ إلى حكام عصره لدعوتهم إلى الإسلام وحاملي كتب الخلفاء إلى قادة الجيوش والعودة برسائل جوابية من هؤلاء القادة.

٢- البريد الجوي (الحمام الزاجل): وقد استخدم الحمام الزاجل في العصر العباسي لنقل الرسائل بسرعة إلى الولايات المختلفة بربطها بأرجلها، وقد تدرب الحمام على الطيران إلى هذه المناطق سلفاً إلا أن هذه الطريقة كان لها سلبيات ومخاطر لاحتمال أن يقع الحمام في أرض العدو فيأخذ الكتاب ويستبدله بكتاب آخر حسب ما تقتضيه الحاجة.

٣- المراسلة بالنار: بإيقاد النيران على المنائر الموجودة في أعالي الجبال أو على أطراف البحار، فعندما تشعر الأطراف المجاورة لأرض العدو بخطر داهم يعد له

العدو تشعل نيرانها على منائرها، وهكذا تشتعل النيران على المنائر الأخرى حتى تصل الأخبار إلى أولي الرأي والحل والعقد، يقول القلقشندي في وصف المراسلات بطرقها الثلاث: «وذلك أن البريد يأتي من سرعة الخبر بما لم يأت به غيره، والحمام يأتي من الخبر بما هو أسرع من البريد، والمناور تأتي من الخبر بما هو أسرع من الحمام، وناهيك أن يظهر عنوان الخبر في الفرات في مسافة يوم وليلة»[1].

(١) القلقشندي، صحبح الأعشى ج ١٤ / ٤٠٠ .

obeikandl.com

الشـــرطـة

فهي في اللغة من شَرَطَ، وهي علامة توضع على ملابس أشخاص معينين ليعرفهم الناس، يؤدون خدمات معينة لحفظ الأمن.

وهي في **الاصطلاح**: الجند الذين يعتمد عليهم الخليفة أو من ينوب عنه، لحفظ الأمن والقبض على الجناة والمفسدين والضرب على أيدي المريبين والمذنبين، وما يتصل بذلك مما يكفل سلامة الناس وأمنهم وأنفسهم وأموالهم.

ولم تكن الشرطة موجودة في عهد النبوة ولا في خلافة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما لعدم الحاجة إليها، فقد كان الخليفة عمر يتجول بنفسه ليلاً ونهاراً في أحياء المدينة ليسهر على راحة الناس.

وقيل: إن أول من استخدمها الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه في المدينة حين ظهر المفسدون والعصاة عليه[1]، كما استخدمهم الخليفة علي بن أبي طالب في الكوفة، وكان رئيسهم يطلق عليه صاحب الشرطة[2]. وفي العصر الأموي تغيرت الظروف واتسعت الدولة الإسلامية وكثرت ولاياتها وظهر العصاة والمتمردون الناقمون على الخلافة الأموية، فاتخذ الخلفاء شرطة تحت أيديهم، كما اتخذ ولاتهم شرطة لهم لحراستهم والقبض على المجرمين الذين يثيرون الفتن في البلاد أو يحرضون على الخلافة الأموية، ثم تطورت إلى أن شملت مهماتهم حراسة الأسواق في الليل، ومرافقة القضاة لتنفيذ الأحكام والحدود وإحضار المذنبين إلى الوالي لسجنهم ومعاقبتهم[3].

---

(١) السيوطي، تارخ الخلفاء/ ١٦٥.

(٢) الطبري، تاريخ الرسل والملوك ج٤/ ٦٦٤.

(٣) ابن خلدون، المقدمة/ ٢٥١.

وكانت مهنة صاحب الشرطة مهنة مرموقة يختاره الخليفة أو الوالي من عَلِيَّة الناس للضرب على أيدي الرعاع والفجرة، وليتمكن من قطع دابر الفتنة بما تقتضيه المصلحة العامة[1]، وقد رفض عبدالرحمن بن الأشعث الكندي هذه الوظيفة حين عرضها عليه الحجاج بن يوسف الثقفي في الكوفة؛ لأنه اعتبر نفسه أرفع شأناً من الحجاج[2].

وفي العصر العباسي اتسعت مهام الشرطة حتى فصلها الخلفاء عن القضاء، ويشتغل فيها ممن تتوفر فيه الغلظة والهيبة لإخافة الناس وعدم الشفاعة في أهل الريب[3].

وفي مصر في دول الفاطميين والأيوبيين والمماليك أصبح للشرطه قيمة كبيرة لمرافقة الحكام وحراستهم، وأُنشئت لهم مراكز في جميع مناطق مصر، وكان الشرطة يحملون الأبواق ويسيرون أمام الحكام لإثارة البهجة في قلوبهم وقلوب الناس، وكانوا يحملون آلة تسمى الطبرزين (سكين طويلة) يعلقونها في أوساطهم[4] وفي الأندلس انقسمت الشرطه إلى قسمين، الأول منها: شرطة كبرى للطبقة الحاكمة وأقربائهم ومن إليهم، والثاني منها: الشرطة الصغرى لعامة الناس من الدهماء. يقول ابن خلدون في وصف الشرطه عموماً:

«وكان أيضاً النظر في الجرائم وإقامة الحدود في الدولة العباسية والأموية في الأندلس والعبيديين بمصر والمغرب راجعاً إلى صاحب الشرطة، وهي وظيفة أخرى دينية كانت من الوظائف الشرعية في تلك الدول، توسع النظر فيها عن

(١) ابن خلدون، المقدمة/ ٢٥٢.
(٢) ابن كثير، البداية والنهاية ج٩/ ٣٥.
(٣) ابن خلدون، المقدمة/ ٦٢٥.
(٤) آدم متز، الحضارة الإسلامية ج٢/ ٢٧٥.

أحكام القضاء قليلاً، فيجعل للتهمة في الحكم مجالاً، وبفرض العقوبات الزاجرة قبل ثبوت الجرائم، ويقيم الحدود الثابتة في محالها، ويحكم في القود والقصاص ويقيم التعزير والتأديب في حق من لم ينته عن الجريمة»[1].

وعموماً فإنه يمكن تلخيص عمل الشرطة في الدولة الإسلامية بما يلي: -

١- الاعتماد عليهم في حماية الخلفاء والولاة بعدما وقعت الاعتداءات على بعضهم.

٢- المحافظة على الأمن العام بعد الفتن التي وقعت على أيدي العصاة والمارقين.

٣- الضرب على أيدي المذنبين والمريبين لتأديبهم.

٤- المحافظة على المال العام.

٥- تنفيذ أوامر القضاة في إحضار المطلوبين للشهادة وغيرها.

٦- تنفيد أحكام الحدود.

٧- حماية المرافق العامة للدولة من عبث العابثين.

٨- مرافقة الحكام والولاة لإظهار الهيبة لهم بالمشي أمامهم في مواكب أثناء الأعياد والمناسبات.

(١) ابن خلدون، المقدمة/ ١٣٦.

obeikandl.com

الحسبة

وهي لغة مأخوذة من الاحتساب، أي ادخار الأجر والثواب عند الله تعالى.

وهي اصطلاحاً: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وقال عنها ابن خلدون: بأنها وظيفة دينية من باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويقال لمن يمارسها المحتسب(١).

حكمها: فرض كفاية، وهي ميزة للمسلمين على سائر الأمم. قال تعالى: ﴿كُنتُم خَيْرَ أُمةٍ أُخرِجَت للناسِ تأمُرُونَ بالمعرُوفِ وتَنْهَوْنَ عن المنكرِ.....﴾(٢).

ومن الآيات الكريمة التي بينت وجوبها قوله تعالى: ﴿الذين إِن مَكَّنَّاهُم في الأرضِ أقَامُوا الصلاةَ وآتَوُا الزكَاةَ وأمرُوا بالمعرُوفِ ونَهوا عن المنكَرِ ولله عاقبةُ الأمورِ﴾(٣) وقال تعالى: ﴿ليسُوا سَواءً منْ أهلِ الكتَابِ أُمَةٌ قائمةٌ يؤمِنُونَ بالله واليومِ الآخِرِ، ويأمُرُونَ بالمعرُوفِ وينَهونَ عن المنكَرِ ويُسارعُونَ في الخيراتِ وأُولئكَ من الصَالحِين﴾(٤) وقال تعالى: ﴿يا بُني أقِمِ الصلاةَ وأمُرْ بالمعروفِ وانهَ عن المُنكَرِ واصْبِرْ على ما أصَابَكَ إِن ذلكَ من عزم الأمُورِ﴾(٥).

وحث الرسول ﷺ على ممارستها فقال: «لتأمرن بالمعروف وتنهون عن المنكر أو ليسلطن الله عليكم شراركم ثم يدعو خياركم فلا يستجاب لهم» وحذر

(١) ابن خلدون، المقدمة/ ٢٢٥.
(٢) سورة آل عمران / الآية ١١٠.
(٣) سورة الحج/ ٤١.
(٤) سورة آل عمران/ ١١٣ - ١١٤.
(٥) سورة لقمان/ ١٧.

الرسول ﷺ من التفريط بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حتى لا يصيب الأمة بلاء عظيم وقدر مستطير، فقال: «**إن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيروه أوشك الله أن يعمهم بعذاب من عنده**» وقال ﷺ: «**من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف درجات الإيمان**»[1].

نشأة الحسبة في دولة الإسلام:

باشرها الرسول ﷺ بنفسه في المدينة، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ مرَّ على رجل أمامه صبرة طعام فأدخل يده فيها، فنالت أصابعه بللاً فقال: «**ما هذا يا صاحب الطعام؟** قال: أصابته السماء يا رسول الله، قال: «**أفلا جعلته فوق الطعام كي يراه الناس! من غش فليس منا**».

كما استعمل الرسول ﷺ بعض أصحابه على الأسواق لمراقبتها، فقد استعمل سعيد بن العاص على سوق مكة، وعثمان بن العاص على سوق الطائف، وخالد بن سعيد بن العاص على سوق عرينه[2]، ثم أصبحت نظاماً متبعاً في الدولة الإسلامية، فمارسها الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه فعين عبدالله بن عتبة بن مسعود والسائب بن يزيد على أسواق المدينة، وعين السيدة شفاء بنت عبدالله وسمراء بنت نهيلة الأسدية على أسواق النساء في المدينة[3]، وقد عدها الخليفة علي بن أبي طالب بأنها تصل إلى درجة الجهاد، فقد ورد عنه أنه قال: «**أفضل الجهاد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فمن أمر بالمعروف شد ظهر المؤمنين، ومن نهى عن المنكر أرغم أنف المنافقين، ومن أبغض الفاسق وغضب لله غضب الله له**»[4].

---

(١) صحيح مسلم ومسؤولية ١/ ٥٠.

(٢) أحمد بن عبدالحكيم تقي الدين، الحسبة ومسؤولية الحكومة الإسلامية، ١٦.

(٣) أحمد سعيد المجيلدي، التيسير في أحكام التسعير/ ٤٢.

(٤) فتحية النبراوي، تاريخ النظم والحضارة الإسلامية/ ١٢٠.

صفات المحتسب:

١- أن يكون ليِّن القول رفيقاً بالناس طلق الوجه مسلماً ذكراً عاقلاً، غير أن البعض يرى بأن يتصف المحتسب بالخشونة ليتخذ بالتخويف والتعزير والعقوبة وسيلة للردع.

٢- يرى البعض أنه ينبغي أن يتوفر بالمحتسب العلم بأحكام الشرع ليعلم أصول الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأن يتميز بالمهابة والجلالة والتمسك بأحكام الدين حتى يكون كلامه مؤثراً مطاعاً، وأن يكون مظهره حسناً لائقاً ليس به عيب في مظهره وملبسه[١]. لينطبق عليه قوله تعالى: ﴿**أَتَأمُرُونَ الناسَ بالبِرِ وتَنْسَونَ أَنْفُسَكُم وأنتمْ تتلُونَ الكتابَ أفلا تعقلون**﴾[٢] وقوله تعالى: ﴿**يا أيُها الذينَ آمَنُوا لِمَ تقُولونَ مالا تَفْعَلُون كَبُرَمَقْتاً عندَ اللهِ أنْ تقُولُوا مالا تَفْعَلُون**﴾[٣].

مهمات المحتسب:ـ

١- الضرب على أيدي المقصرين بحقوق الله تعالى كصلاة الجماعة وصيام رمضان.

٢- مراعاة حقوق الناس بمتابعة إصلاح شؤونهم بإقامة الأسوار وإصلاح المساجد والنظر في ثغور المسلمين المجاورة لدار الحرب بإقامة الحصون والقلاع.

٣- الإصلاح بين الناس والتوفيق بينهم لأداء الديون ومساعدة الأيتام في تعيين كفلاء لهم والمساعدة على الزواج ومساعدة الجيران في خلافاتهم ومنع التطفيف في الكيل والميزان.

---

(١) الماوردي، الأحكام السلطانية/ ٢٤٠ - ٢٤١.
عبدالرحمن بن نصر الشيزري، نهاية الرتبة في طلب الحسبة/ ٦-٩.

(٢) سورة البقرة/ ٤٤.

(٣) سورة الصف/ ٢-٣.

٤- الأخذ على أيدي ظلمة الناس في مراعاة حقوق عبيدهم وإمائهم وتحميل دوابهم ما لا تطيق ومساعدة الضالة من الصغار والبهائم.

٥- منع الناس من مواقف الشك والريبة، كخلو رجل بامرأة دون محرم لقوله ﷺ: «دع ما يريبك إلى ما لا يريبك».

٦- التدخل لدى المخلين بالآداب العامة حرصاً على سلامة المجتمع الإسلامي.

٧- التدخل في الأمور المحرمة كالمسكرات والملاهي المخلة بالآداب.

٨- منع الغش والتدليس في البيع والغرر (بيع شيء معلوم بشيء مجهول) والنجش (وهو الزيادة في السعر لا على سبيل الشراء وإنما من باب الخداع لزيادة السعر فيها أمام المشترين).

٩ـ مراقبة الصناعات من الغش حتى لا يتضرر الناس.[1].

أهمية الحسبة في المجتمع الإسلامي:

استمرت هذه الوظيفة في المجتمع الإسلامي في العصور الإسلامية المتتابعة فانضبطت بها أوضاع الناس، وهي ميزة للمجتمع الإسلامي على سائر الأمم، ولا شك أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يصلح المجتمع، فالنفوس الطيبة يكفيها الإرشاد والتوجيه والتذكير، بينما لا ترتدع النفوس الشريرة إلا بالمعاقبة والزجر، فينال الضعيف حقه حين يجد من يناصره ويحميه، ويرتدع الظالم حين يجد من يزجره ويأخذ على يديه.

(١) انظر: الماوردي، الأحكام السلطانية/ ٢٥٨، والشيزري، نهاية الرتبة في طلب الحسبة/ ١٨.

نظام الأسرة في الإسلام ودور المرأة في الجهاد وخدمة الدعوة الإسلامية

- مكانة المرأة قبل الإسلام:

لم يتحدد الزواج قبل الإسلام على نمط واحد كما هو الحال بعد الإسلام، بل إنه كان يتخذ أشكالاً متعددة أقر بعضها الإسلام وأنكر البعض الآخر وحرمه، ومما أقره الإسلام أن يخطب الرجل فتاة من وليها ثم ينكحها، ومما أنكره نكاح الاستبضاع[١] ونكاح الضماد[٢] ونكاح الخدن[٣] ونكاح البدل[٤]، ولم يتحدد عدد النسوة بل كان التعدد مطلقاً[٥].

ولم تكن المرأة مهملة تماماً في الجاهلية، بل كان لها وضع مميز في التملك والمتاجرة بمالها، كما كان لها عيد خاص في شهر رجب كما ذكر ابن سعد[٦]. وقد ظهر من نساء العرب في الجاهلية نساء شاعرات مثل: الخنساء، وليلى بنت الأخيل، وهند بنت حذيفة، والفارعة بنت معاوية العشرية، وسلمى بنت المحلق، وسبرة بنت الحارث النميرية[٧].

---

(١) نكاح الاستبضاع: أن يقول الرجل لامرأته إذا طهرت اذهبي إلى فلان فاستبضعي منه، لتحمل منه رغبة في نجابة الولد.

(٢) نكاح الضماد: أن يجتمع الرهط فيدخلون على المرأة كلهم يصيبها، فإذا حملت وولدت، فهي التي تحدد من يلحق به ولدها.

(٣) نكاح الخدن: هو أن يعاشر الرجل المرأة سراً.

(٤) نكاح البدل: أن يقول الرجل للرجل انزل لي عن امرأتك وأنزل لك عن امرأتي وأزيدك.

(٥) أبو زيد شلبي، تاريخ الحضارة الإسلامية/ ٢٤- ٢٥.

(٦) ابن سعد، الطبقات الكبرى ج٨/ ١٥.

(٧) محمد عبدالقادر خريسات، المرأة والمشاركه السياسية/ ١٥ - ٢٠.

كما كان للمرأة حظ من التعليم، فكانت بعض النسوة يقرأن ويكتبن مثل: حفصة بنت الخطاب[1].

كما كان للمرأة شأن في القيادة، فقد حاربت بعض النسوة مع المرتدين وحارب تحت قيادتهن قبائلهن مثل: أم زمل سلمى بنت مالك بن حذيفة حيث قادت جموعاً من غطفان وهوازن وسليم وأسد وطيِّء فهزمها خالد بن الوليد شر هزيمة[2]، كما قادت سجاح بنت الحارث بن سويد جموعاً من المرتدين من بني تميم وبني حنظلة فهزمهم خالد بن الوليد أيضاً[3]. وبالرغم من هذه المكانة لبعض النسوة عند العرب إلا أنهم كانوا لا يحبون البنات في الذرية والنسل، كما وصف ذلك القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿وإذا بُشِّرَ أحَدُهُم بالأُنْثَى ظلَّ وجهُهُ مُسْوَدّاً وهو كَظِيمٌ. يتوارَى مِنَ القَومِ منْ سُوءِ ما بُشِّرَ به أيُمْسِكُهُ على هُونٍ أمْ يَدُسُّهُ في الترابِ ألا سَاءَ ما يَحكُمُونَ﴾[4]، وقوله تعالى: ﴿وإذا الموْءُودَةُ سُئِلَت بأي ذنبٍ قُتِلَت﴾[5].

مكانة المرأة في الإسلام:

كرم الإسلام المرأة وأعطاها حقوقها كاملة غير منقوصة سواء كانت بنتاً عند أبيها أو زوجة عند زوجها أو أماً عند أولادها، وحرم وأد البنات كما كان العرب يفعلون في الجاهلية، وهذا ما وصفه القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿وإذا الموْءُودَةُ

(١) البلاذري، فتوح البلدان/ ٤٥٨.
ابن حجر، الإصابة ج٤/ ٣٤١ - ٣٤٢.
(٢) الطبري، تاريخ الرسل والملوك ج٣/ ٢٦٣.
(٣) ابن أعثم، كتاب الفتوح ج١/ ٢٧.
(٤) سورة النحل/ ٥٨-٥٩.
(٥) سورة التكوير ٨-٩.

سُئلَت بأي ذنب قُتلَت ﴾[1]، وبين القرآن الكريم أن المرأة والرجل من أصل واحد قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾[3].

وقد ذكر القرآن الكريم المرأة في مواضع كثيرة دلالة على أهميتها في المجتمع الإسلامي كسورة النساء والطلاق والبقرة والتحريم والمجادلة والممتحنه والنور والمائدة والأحزاب، كما أكدت كثير من الآيات على أن المرأة عضو عامل في المجتمع الإسلامي، وجعل لها من الثواب والعقاب مثل ما للرجل قال تعالى: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلا يُظْلَمُونَ نَقِيراً ﴾[4] ومثلها مثل الرجل في طاعة الله، قال تعالى: ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[5] وقال تعالى: ﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا

(١) التكوير/ ٨-٩.
(٢) سورة النساء/ ١.
(٣) سورة الحجرات/ ١٣.
(٤) سورة النساء/ ١٢٤.
(٥) سورة التوبة/ ٧١.

لأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ﴾[1].

كما حفظ الإسلام حق المرأة وهي أم عند أولادها قال تعالى: ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً ﴾[2]..

وقال ﷺ رداً على سؤال لأحد الصحابة: «مَنْ أحق الناس بحسن صحابتي؟ قال: أمك، قال: ثم من؟ قال: أمك، قال: ثم من؟ قال: أمك قال: ثم من؟ قال: أبوك».

كما ضمن لها الإسلام وهي فتاة في بيت أبيها حقها من التعليم والنفقة واختيار الزوج، كما حفظ حقها في حيازة الأموال والتصرف بها في البيع والشراء والهبة والوصية.[3]

الزواج المشروع في الإسلام:

أقرَّ الإسلام الزواج الذي يقيم أسرة صالحة تقوم على الرحمة والمودة والاستقرار، وتؤمن العفة والكرامة للرجل والمرأة، ويتحمل فيها كل من الرجل والمرأة مسؤوليته الكاملة في تحمل الأعباء لحماية الأسرة ورعايتها قال تعالى: ﴿ وَمِن آياتِهِ أن خَلَقَ لكُم من أنْفُسِكُم أزواجاً لِتَسكُنُوا إليها وجَعَلَ بينَكُم مَودةً

(١) سورة آل عمران/ ١٩٥.
(٢) سورة الإسراء/ الآية ٢٣-٢٤.
(٣) ابن ماجه، السنن ج١/ ٦٠٢-٦٠٣.

وَرَحْمةً إِنَّ في ذلكَ لآياتٍ لقوم يتفكرُون ﴾[1]. وقال تعالى: ﴿ أُحِلَّ لَكُم لَيلَةَ الصيامِ الرفَثُ إلى نسائِكُم هُنَّ لِبَاسٌ لكُم وأنتم لباسٌ لهن... ﴾[2].

والزواج عند المسلمين عفة وكرامة للرجل والمرأة قال ﷺ: «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءَة فليتزوج فإنه أعف للبصر وأحصن للفرج، فمن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء»[3] وقد وصف القرآن الكريم الزواج بأنه علاقة وثيقة الصلة لا تنفصم لأتفه الأسباب، قال تعالى: ﴿ وإنْ أردتُم استبدالَ زَوْجٍ مكانَ زوجٍ وآتيتُم إحداهُن قِنطاراً فلا تأخُذوا منه شيئاً أتأخُذُونَه بُهتَاناً وإثماً مُبينَا. وكَيفَ تأخُذونَه وقد أفضَى بعضُكُم إلى بَعْضٍ وأخَذنَ مِنكُم ميثاقاً غَليظاً ﴾[4].

وقد أقام الإسلام اختيار الزوجة على الدين وهو الأساس الذي يجمع بين الزوجين قال ﷺ: «تنكح المرأة لأربع، لمالها ولحسبها ولجمالها ولدينها فاظفر بذات الدين تربت يداك»[5].

وقال ﷺ: «إذا أتاكم من ترضون دينه وخلقه فأنكحوه، إن لم تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير»[6].

وتفضل البكر على الثيب قال ﷺ: «عليكم بالأبكار فإنهن أعذب أفواهاً وأنتق أرحاماً وأرضى باليسير»[7].

---

(١) سورة الروم/ ٢١.
(٢) سورة البقرة/ ١٨٧.
(٣) رواه مسلم.
(٤) سورة النساء/ ٢٠-٢١.
(٥) رواه مسلم، صحيح مسلم م٤/ ١٧٥.
(٦) رواه الترمذي.
(٧) رواه البخاري ومسلم.

وسأل الرسول ﷺ جابر بن عبدالله: «هل تزوجت؟ فقال جابر: نعم يا رسول الله. قال: بكراً أم ثيباً؟ قال: قلت: بل ثيباً. قال: فهلا بكراً تلاعبها وتلاعبك»(١).

وحث الإسلام على الإنجاب ورغب فيه فقال ﷺ: «تزوجوا الودود الولود فإني مكاثر بكم»(٢).

ويفضل اختيار ذات العقل والابتعاد عن الأقارب حتى لا يضعف النسل(٣).

ومن حق الرجل والمرأه أن ينظر كل منهما إلى الآخر قبل الزواج كي يكون زواجهما عن قناعة وارتياح، فعن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا خطب أحدكم المرأة فإن استطاع أن ينظر إلى ما يدعوه إلى نكاحها فليفعل. قال: فخطبت امرأة، فكنت أتخبأ لها حتى رأيت منها ما دعاني إلى نكاحها فتزوجتها»(٤).

والزواج رباط وثيق وعهد من الله، قال ﷺ: «اتقوا الله في النساء، فإنكم قد أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمته»(٥). وهذا الرباط لا يقوم إلا بولي أبيها أو أخيها أو ابنها الكبير أو من يقوم مقامهم في غيابهم، دون إكراه أو موانع شرعية؛ كالأخوة في الرضاع، أو في عصمة رجل آخر؛ وأن يتم بشهود اثنين وبالإيجاب والقبول بين الطرفين، وتسمية صداقها.

---

(١) رواه البخاري ومسلم.
(٢) رواه النسائي.
(٣) ابن قدامة، المغني ج٧/ ٤٦٩.
(٤) رواه أبو داود.
(٥) رواه مسلم.

حقوق الزوج على زوجته:

١- بيده القوامة في حماية الأسرة وتدبير أمورها، وله مسؤولية النفقة وتحمل المشاق في السعي لكسب الرزق، والرجل في هذا أقدر من المرأة كما قال الشارع الإسلامي، وليس معنى ذلك أن يستبد الرجل بشؤون الأسرة كلها يفعل كما يشاء، بل يمكن له أن يأخذ برأي الزوجة والأولاد ليشعرهم بمكانتهم عنده ومنزلتهم في الأسرة، قال تعالى: ﴿**الرجالُ قَوامُونَ على النساءِ بما فضلَ اللهُ بَعْضَهُم على بَعْضٍ وبما أنفقُوا من أموالِهِم...**﴾[١]. وقال تعالى: ﴿**... ولهنَ مثلُ الذي عليهن بالمعروفِ وللرجالِ عليهن دَرَجةٌ واللهُ عَزيزٌ حَكيمٌ**﴾[٢].

وقد يفقد الرجل أحقيته في القيادة والقوامة إذا لم يكن قادراً على القيادة والقيام بمسؤولياته على أكمل وجه وظهر تفوق المرأه عليه.

٢- الطاعة، حتى تستقيم الحياة الزوجية بنظام معين. قال ﷺ: «**ما استفاد المؤمن بعد تقوى الله خيراً له من زوجة صالحة، إن أمرها أطاعته، وإن نظر إليها سرته، وإن أقسم عليها أبرته، وإن غاب عنها نصحته في نفسها وماله**»[٣].

ومن الطاعة أن تطيعه في حق المعاشرة الزوجية قال ﷺ: «**إذا دعا الرجل امرأته إلى فراشه فأبت أن تجيء فبات غضبان عليها لعنتها الملائكة حتى تصبح**»[٤].

٣- له الحق في الزواج بأكثر من واحدة شريطة أن لا يزيد عنده عن أربع زوجات، وعدم إيقاع الضرر بإحداهنَّ لصالح أخرى، والأصل في التعدد العدل

---

(١) سورة النساء/ ٣٤.
(٢) سورة البقرة/ ٢٢٨.
(٣) رواه ابن ماجة.
(٤) رواه البخاري ومسلم.

بينهن وعدم وقوع الظلم، وقد سمح الإسلام بالتعدد لأسباب اجتماعية حين يزيد كثيراً عدد النساء على الرجال في الحروب، أو لأسباب إنسانية تعود بالخير والمنفعة على الزوجة الأولى، أو بسبب طلاق قد يكون في صالح المرأة حين يصعب استمرار الحياة الزوجية وتتحول الحياة بين الزوجين إلى جحيم لا يطاق.

٤- ألا توطئ المرأة فراش زوجها من يكرهه قال ﷺ: «**ألا إن لكم على نسائكم حقاً ولنسائكم عليكم حقاً، فحقكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم من تكرهون ولا يأذن في بيوتكم من تكرهون**»(١) ويشمل هذا المنع دخول الرجل إلى المنزل في غياب الزوج أو الخلوة أو أي تصرف من شأنه فقدان الثقة بين الزوجين، والمحافظة على بيت الزوج حق شرعي له.

٥- عدم الخروج إلا بمعرفة الزوج، حتى لا تقع الريبة بين الاثنين، قال ﷺ: «**ولا تخرج من بيته إلا بإذنه**»(٢).

٦- المحافظة على مال الزوج بعدم تبذيره بما لا فائدة منه وفيما لا يرضى به الزوج.

٧- عدم صيام التطوع إلا بإذنه بخلاف صيام رمضان أو النذر، فإنهما لا يحتاجان إلى إذن، قال ﷺ: «**لا تصوم المرأة وبعلها شاهد إلا بإذنه، ولا تأذن في بيته وهو شاهد إلا بإذنه**»(٣).

٨- إدارة شؤون المنزل بما يرضي الزوج قال ﷺ: «**والمرأة راعية في بيت زوجها ومسؤولية عن رعيتها**»(٤).

---

(١) رواه الترمذي وابن ماجه.
(٢) رواه البيهقي.
(٣) رواه مسلم.
(٤) رواه البخاري ومسلم.

٩- حفظ أسرار زوجها. قال تعالى: ﴿فالصالحاتُ قانِتَاتٌ حافظاتٌ للغيبِ بما حَفِظَ اللهُ﴾[١].

حقوق الزوجة على زوجها:-

١- للمرأة حق التصرف بصداقها ومالها وليس لزوجها أن يكرهها على التصرف به دون إذنها.

قال تعالى: ﴿وآتوا النساءَ صَدُقَاتِهِن نِحْلَةً فإنْ طِبْنَ لَكُم عن شيء منهُ نَفْساً فكُلُوه هنيئاً مريئاً﴾[٢] وقال تعالى: ﴿...فأنكِحُوهُن بإذْنِ أهْلِهِنَّ وآتُوهُن أجُورَهُن بالمعروفِ...﴾[٣].

وقد رغب الإسلام في الزواج وجعل أقل النساء مهراً أكثرهن خيراً وبركة. قال ﷺ: «خير النساء أحسنهن وجوهاً وأقلهن مهوراً».

٢- للمرأة حق في ميراث زوجها وأبنائها ووالدها، قال تعالى: ﴿ولَكُم نِصفُ ما تَرَكَ أزْواجُكُم إن لَم يَكُن لَهُن ولدٌ فإنْ كانَ لَهُن ولدٌ فلَكُم الرُبُعُ مِما تركْنَ من بعدِ وصيةٍ يوصِينَ بها أو دَيْن..﴾[٤].

وقال تعالى: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلْ الله يفتيكُم في الكَلالَةِ إنْ امرٌ هَلَكَ ليسَ له وَلَدٌ ولهُ أخْتُ فله نِصْفُ ما تَركَ..﴾[٥]

---

(١) سورة النساء/ ٣٤.
(٢) سورة النساء/ ٤.
(٣) سورة النساء/ ٢٥.
(٤) سورة النساء/ ١٢.
(٥) سورة النساء/ ١٧٦.

٣- للمرأة حق على زوجها بمعاملتها معاملة حسنة وعدم إيذائها بغير وجه حق، وأن لا يكون فظاً غليظاً في معاملته لها حتى لا تنفر منه، وأن تسود بينهما الرحمة والمودة قال تعالى: ﴿وَمِنْ آياته أنْ خَلَقَ لَكُم من أنْفُسِكُم أزْواجاً لِتَسْكُنُوا إليهْا وَ جَعَلَ بَيْنَكُم مَوَدةً وَرَحمةً إن في ذَلِكَ لآيات لقومٍ يَتَفَكرونَ﴾[1].

ومن حسن المعاشرة للزوجة ملاطفتها ومغفرة أخطائها ومناداتها بأحسن أسمائها والصبر على زلاتها قال ﷺ: «أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً وخياركم خياركم لنسائهم».

ولها عليه النفقة قدر المستطاع. قال تعالى: ﴿لِيُنفِقْ ذو سَعَةٍ من سَعَتِه، وَمَنْ قُدِرَ عليه رِزْقُه فلْيَنْفِقْ مما آتَاهُ اللهُ لا يُكلفُ اللهُ نَفْساً إلا ما آتاها، سَيَجْعَلُ اللهُ بعدَ عُسرٍ يُسْراً﴾[2].

٤- العدل بين النساء إن كن أكثر من واحدة، في المسكن والمأكل والملبس والمبيت، قال تعالى: ﴿وإن خِفْتُم ألاَّ تُقْسِطوا في اليتَامى فانكِحُوا ما طابَ لكم مَثْنَى وثلاثَ ورُبَاعَ، فإنْ خفْتُمْ الا تعدِلُوا فَواحِدَةً أوْ ما مَلَكَتْ أيْمَانُكُم ذلكَ أدنَى ألاَّ تعُولُوا﴾[3].

٥- إعفاف الزوجة بإشباعها في حقها الشرعي بالمعاشرة في فراشها سبيلاً للإنجاب وإشباعاً للرغبة.

٦- عدم الاستبداد بالرأي معها، ولا بأس أن يأخذ برأيها، فقد كان الرسول ﷺ يأخذ برأي زوجاته كما فعل في غزوة الحديبية عندما أخذ برأي أم

(١) سورة الروم/ ٢١.
(٢) سورة الطلاق/ ٧.
(٣) سورة النساء/ ٣.

سلمه بأن ينحر ويحلق ويتحلل، فاقتدى به أصحابه وعادوا إلى المدينة ولم يدخلوا مكة في تلك السنة (السادسة هـ) التي وقع فيها صلح الحديبية[1].

حقوق الأبوين على الأبناء:

لهما حق البر والإحسان وبذل الراحة والإنفاق إذا كبر أحدهما أو كلاهما، قال تعالى: ﴿ ....وبالوالدين إحساناً﴾[2]. وقال تعالى: ﴿وَوَصينا الإنسَانَ بِوَالدَيهِ حملته أمُهُ وهناً على وَهْنٍ وفِصَالُهُ في عامينِ أن اشْكُرْ لي ولِوالِدَيْكَ إليَّ المَصيرُ﴾[3].

وللأبناء على الوالدين العطف عليهم وتربيتهم والإنفاق عليهم وعدم القسوة عليهم قسوةً غير مألوفة قد تؤدي إلى الفساد وتشريد الأبناء، ومراقبتهم حتى لا يقع الأبناء في الانحلال والفساد. قال ﷺ: «**الزموا أولادكم وأَحسِنُوا أدبهم**».

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: رأى الأقرع بن حابس النبي ﷺ يقبل ولده الحسن فقال: إن لي عشرة من الولد ما قبلتُ واحداً منهم، فقال عليه الصلاة والسلام: «**من لا يَرْحَمْ لا يُرْحَم**»[4].

دور المرأة في الجهاد وخدمة الدعوة الإسلامية:

لقد أظهرت خديجة بنت خويلد رضي الله عنها مع زوجها محمد ﷺ تعاطفاً كبيراً وتعاوناً صادقاً بمجرد إعلانه الدعوة إلى الإسلام، وكانت أول من

(١) محمد أبو زهرة، خاتم النبيين ج٢/ ١٠١٣.
(٢) سورة النساء/ ٣٦.
(٣) سورة لقمان/ ١٤.
(٤) صحيح مسلم م٧/ ٧٧.

أسلم معه، وظلت طوال حياتها معه قبل النبوة وبعدها صابرة حتى وفاتها في السنة العاشرة من البعثة النبوية.

كما كان لأسماء بنت أبي بكر موقف المساعدة أثناء هجرة أبيها أبي بكر مع الرسول ﷺ من مكة إلى المدينة تنقل لهما الطعام كل يوم إلى غار ثور قبل أن يواصلا سيرهما إلى المدينة، كما كان من بين المهاجرات إلى الحبشة تسع عشرة امرأة مع أزواجهن[1]. وبايعت النساء اللائي دخلن الإسلام الرسول ﷺ على الإيمان، ونزل في حقهن قوله تعالى: ﴿**يا أيها النبي إذَا جَاءَكَ المؤمِنَاتُ يُبَايعْنَكَ على أنْ لا يُشركنَ باللهِ شَيْئَاً ولا يَسْرقنَ ولا يَزْنينَ ولا يَقتُلنَ أولادهُن ولا يَأتين ببُهتَانٍ يفترينَه بين أيديهن وأرجُلِهن ولا يَعصينَكَ في مَعْرُوفٍ فَبَايعْهُن واستَغْفِر لهن اللهَ إن الله غفورٌ رَحيم**﴾[2].

وقد استشار الرسول ﷺ زوجه أم سلمة وكانت ترافقه في غزوة الحديبية استشارها فيما يفعله بشأن الذين ترددوا من أصحابه في التحلل من الإحرام للعودة إلى المدينة وعدم المتابعة إلى مكة حسب الشرط في صلح الحديبية بينه وبين قريش، فأشارت عليه بأن يتحلل هو أولاً، وعندئذ سيتبعه أصحابه، ففعل فتبعه أصحابه وتحللوا من إحرامهم وعادوا معه إلى المدينة[3].

وفي المدينة كانت نساء المسلمين يخرجن مع أزواجهن في الغزوات يقدمن الطعام والماء لهم، فعن أنس رضي الله عنه قال: «**كان رسول الله ﷺ يغزو بأم سليم ونسوة معها من الأنصار يسقين الماء ويداوين الجراح**».

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية ج٢/ ٩٥.

(٢) سورة الممتحنة/ ١٢.

(٣) محمد أبو زهرة، خاتم النبيين ج٢/ ١٠١٣.

وسكت الرسول ﷺ عن مشاركة نسائه في الغزوات، فقد شاركت أم سليم وعائشة وابنته فاطمة رضي الله عنهن في غزوة أحد، فكن يسقين الجرحى[١]، كما دافعت نسيبة بنت كعب المازنية أم عمارة عن الرسول ﷺ في غزوة أحد، فقال عنها ﷺ: «**ما التفت يميناً ولا شمالاً إلا وأنا أراها تقاتل دوني**»[٢].

وشاركت صفية بنت عبدالمطلب فقتلت يهودياً وكان يطوف بحصن فيه بعض نساء المسلمين في غزوة الخندق حتى لا يدل على عورات المسلمين[٣].

واصطحب المسلمون نساءهم في غزوة خيبر وقمن بتمريضهم حين مرضوا بالحمى لكثرة المستنقعات هناك[٤].

وكان الخليفة عمر بن الخطاب يريد أن يحدد المهور فعارضته امرأة واستشهدت بقوله تعالى: ﴿**وإنْ أرَدتُم استبدال زوج مكانَ زوجٍ وآتيْتُم إحداهُن قِنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً أتأخذونه بُهتَاناً وإثماً مُبِيناً**﴾[٥] فأخذ عمر برأيها.

وسأل الخليفة عمر ابنته حفصه عن قدرة المرأة على غياب زوجها عنها فأشارت بخمسة أشهر، فأمر عمر بعدم غياب الأزواج عن زوجاتهم أكثر من ذلك أثناء الفتوحات الإسلامية خارج الجزيرة العربية[٦]. وكتب الخليفة عمر إلى أمراء الثغور يأمرهم أن يأخذوا الرجال بالقفول إلى النساء. وعيَّن الخليفة عمر سمراء بنت نهيك على سوق نساء المدينة لمراقبة البيع والشراء والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر[٧].

---

(١) الواقدي، مغازي الرسول ص/ ١٩٥.
(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري ج٦/ ٧٨ - ٨٠.
(٣) ابن حجر، الإصابة ج٨/ ١٢٨.
(٤) خطّاب، الرسول القائد/ ٣١٧.
(٥) سورة النساء/ الآية ٢٠.
(٦) محمد حميدالله، الوثائق السياسية/ ٧٥٢ - ٧٥٣.
(٧) ابن عبدالبر، الاستيعاب ج٤/ ٣٣٥.

وخارج الجزيرة العربية شاركت النساء في الفتوحات حين خرجن مع أزواجهن، وكن يمرضن الجرحى ويعددن الطعام ويحفرن القبور لدفن الشهداء[١]، وقاتلت خولة بنت الأزور في فتوحات بلاد الشام[٢]، ورافقت سلمى بنت حفصة زوجها المثنى بن حارثه الشيباني في فتوح العراق، وواصلت مشاركة سعد بن أبي وقاص في الفتح بعدما استشهد زوجها المثنى وتزوجها بعده سعد[٣].

واصطحب معاوية بن أبي سفيان أثناء ولايته على الشام زوجته فاخته بنت قرظة في فتح قبرص سنة ٨٢هـ، كما اصطحب عبادة بن الصامت زوجته أم حرام بنت ملحان الأنصارية في هذه الغزوة[٤].

واستشار الخليفة عثمان بن عفان عائشة رضي الله عنها عندما حاصره المتمردون في المدينة أن يعتزل عن الخلافة فنهته عن ذلك حتى لا تصير سنة عند المسلمين[٥].

وكان عبدالملك بن مروان يستشير زوجته عاتكة في كثير من الأمور ويأخذ برأيها[٦] كما كان ابنه الوليد يأخذ برأي زوجته وكانت معروفة بسداد رأيها ورجاحة عقلها[٧].

---

(١) ابن الأثير، الكامل ج٢/ ٣١٤ .
(٢) الواقدي، فتوح الشام.
(٣) الدينوري، الأخبار الطوال/ ٩٣ .
الطبري، تاريخ الرسل والملوك ج٤/ ٨٩ .
(٤) البلاذري، فتوح البلدان ج١/ ١١٨ .
(٥) ابن شبه أبو زيد عمر النميري، تاريخ المدينة المنورة.
(٦) الأصفهاني، الأغاني ١٩ / ١٢٢ وما بعدها.
(٧) ابن عساكر، تاريخ دمشق/ ٤٨٢ .

وفي العصر العباسي اعتمد الخلفاء العباسيون على العنصر الفارسي تارة وعلى العنصر التركي تارة أخرى في تسيير إدارة البلاد وخاصة في القصور والجيش، وغلبت النساء الجواري على النساء الحرائر، وأصبح لهن دور بارز عند الخلفاء العباسيين، فقد كان ثلاثة منهم فقط من أمهات عربيات وهم: أبو العباس السفاح، وأخوه أبو جعفر المنصور، ومحمد الأمين بن هارون الرشيد، وأربعة وثلاثون من أمهات غير عربيات، وتبعاً لذلك غلبت العادات والتقاليد الفارسية والتركية على المجتمع العربي في عاصمة الخلافة العباسية[١] لدرجة أن المنصور اعتمد على معرفة أخبار رعيته عن طريق النساء[٢]، كما كان يثق بريطة بنت أبي العباس السفاح زوجة ابنه المهدي ويأتمنها على أسرار الدولة[٣].

وقد لعبت الخيزران دوراً مهماً في خلافة المهدي، وهي أم ولد، اشتراها المهدي فكانت من جواريه، وكان ولداها الهادي وهارون الرشيد من أعظم الخلفاء العباسيين، وكثيراً ما كانت الخيزران تتدخل في شؤون الدولة في خلافة زوجها المهدي، لكن هذا التدخل لم يلبث أن انقطع في خلافة ابنها الهادي؛ لأنه منعها من ذلك[٤]. ولكنها عادت إلى سيرتها الأولى في خلافة ابنها هارون الرشيد[٥].

ثم برز دور السيدة زبيدة بنت أبي جعفر المنصور، زوجة هارون الرشيد (والدة ابنه محمد الأمين) حيث كان لها أعمال جليله في العناية بالحجيج،

---

(١) خريسات، مرجع سبق ذكره/ ٦٧ .

(٢) الجاحظ، التاج/ ١٦٩ .
صلاح الدين المنجد، بين الخلفاء والخلعاء/ ٨٧ .

(٣) الجاحظ، رسائل الجاحظ ج٢/ ١٥٦ .
الأصفهاني، الأغاني ج١/ ٢٦٠ .

(٤) المسعودي، مروج الذهب ج٣/ ٣٣٧ .

(٥) الجهشياري، الوزراء والكتاب/ ١٠٠ .
ابن كثير، البداية والنهاية ج ١٠ / ١٦٣ .

فشقت لهم قناة تأتي بالمياه من نواحي الطائف إلى منى وعرفات، وسهلت طريق الحج من الكوفة إلى مكة، وأقامت على الطريق السدود والسقايات[١]، وألحت على هارون الرشيد لتقديم ابنها محمد الأمين في ولاية العهد على ابنه الثاني عبدالله المأمون (من أم فارسية تسمى مراجل) فأخذ برأيها وأوصى إلى الأمين ثم المأمون[٢]. وتزوج المأمون من بوران الفارسية، فكان يأخذ برأيها[٣].

ثم انتقلت الخلافة إلى أخيه المعتصم بن هارون الرشيد، وكان يأخذ برأي والدته التركية ماردة، وكان يميل إلى العنصر التركي بتأثير أمه[٤].

كما وقع الواثق تحت تأثير أمه التركية قراطيس[٥].

وفي العصر العباسي الثاني ضعفت هيبة الخلفاء كثيراً وظهرت أسر فارسية و تركية استأثرت بزمام الأمور في الولايات الإسلامية، وأقامت هذه الأسر دولاً شبه مستقلة أو تكاد تكون مستقلة عن الخلافة العباسية وخاصةً في المشرق الإسلامي مثل: البويهيين والغزنويين والسلاجقة والخوارزميين، وكثرت الجواري في قصور الخلفاء وزاد نفوذهن[٦]، فقد تدخلت شجاع التركية الخوارزمية أم المتوكل على الله (٢٣٢-٢٤٧هـ) في شؤون الدولة[٧]، وبرزت

(١) المسعودي، مروج الذهب ج٤/ ٢٢٤ .
(٢) المصدر نفسه ج٣/ ٥٠٨ .
الأصفهاني، الأغاني ج ١٩ / ٢٧٩ .
(٣) خريسان، مرجع سبق ذكره/ ١١٠ .
(٤) ابن الأثير، الكامل ج٦/ ٥٢٧ .
السيوطي، تاريخ الخلفاء/ ٢٣٢ .
(٥) ابن الأثير، الكامل ج٦/ ٥٢٨ .
(٦) مسكوية، تجارب الأمم ج٢/ ٩٧ - ٩٨ .
التنوخي، الفرج بعد الشدة ج١/ ٢٤٤ .
(٧) الطبري، تاريخ الرسل والملوك ج٩/ ٢١٣ .

قبيحة (جارية رومية) وهي ذات جمال فائق برزت في خلافة زوجها المتوكل على الله جعفر بن المعتصم بن الخليفة هارون الرشيد (٢٣٢-٢٤٧هـ) وفي خلافة ابنها المعتز (٢٥٢-٢٥٥ هـ)[١] ظهر دور شغب الرومية في إدارة الدولة في خلافة ابنها المقتدر جعفر بن المعتضد (٢٩٥-٣٢٠هـ) وكانت ذات جمال كبير، وكان زوجها المعتضد يستشيرها في تصريف شؤون الدولة[٢].

ومن أمهات الأولاد المشهورات ظلوم الرومية أم الخليفة القاهر (٢٣٠-٣٢٢هـ) وكانت تبذل الأموال الكثيرة حتى ازدحم الناس على بابها[٣].

وفي الدولة السلجوقية برزت زوجة طغرلبك السلجوقي وتركان خاتون زوجة ملكشاه بن السلطان ألب أرسلان السلجوقي، حيث قادت الجيوش وتدخلت في شؤون الإدارة والحكم[٤].

كما شاركت شجرة الدر مع زوجها السلطان الصالح نجم الدين أيوب في معركة المنصورة ضد الصليبيين في الحملة الصليبية السابعة على مصر سنة ٦٤٧هـ/ ١٢٤٩م، ثم أخفت خبر وفاة زوجها أثناء المعركة حتى لا يؤثر ذلك في معنويات المسلمين، وتولت شجرة الدر قيادة المعركة ريثما يصل ابن زوجها توران شاه من الشام حيث أوصت له بالمجيء على وجه السرعة.[٥].

---

(١) المسعودي، مروج الذهب ج٤ / ١٢٧ .
ابن الأثير، الكامل ج٧ / ١٩٧ .
(٢) ابن الجوزي، المنتظم ج٦/ ٢٥٩ .
ابن كثير، البداية والنهاية ج١١/ ١٨٧ .
(٣) الصولي، أخبار الراضي بالله والمتقي بالله/ ٢٥ .
(٤) أبو الفرج بن الجوزي، المنتظم ج٨/ ٢٦٠- ٢٦١ .
سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان/ ١٤٦ .
(٥) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة ج٦/ ٣٦٤ .

الطلاق:

الطلاق الذي شرعه الدين الإسلامي لإنهاء العلاقة الزوجية عند استحالة استمرار تلك العلاقة، بما يعكس فساد العلاقات الأسرية والزوجية، وعندما تصل الأمور إلى طريق مسدود لا حل لها بين الزوجين، هنا يقع الطلاق المباح الذي وصفه الرسول ﷺ بأنه «**أبغض الحلال إلى الله الطلاق**»(١)؛ لذلك فإن الدين حث على أن يقوم كل من الزوجين بواجباته حتى لا يقع النزاع والخلاف الذي يؤدي إلى الطلاق.

ثم إن الدين نظم مسألة الطلاق حتى تتم المصلحة لكل من الزوجين وبقية أفراد الأسرة، فجعله بيد الرجل، وأحياناً بيد المرأة فيما يسمى بالخلع بأن يتراضى معها الزوج على مبلغ من المال يأخذه منها مقابل الطلاق على أن لا يتجاوز هذا المبلغ عن المهر الذي أخذته منه أصلاً.

كما فسح الشرع مجال التفاهم للعودة بين الزوجين، فسمح بالعودة من الطلاق مرتين ضمن حدود العدة. قال تعالى: ﴿**يا أيُها النبي إذا طلقتُم النساءَ فطلقُوهُن لعدتهن وأحصُوا العدة واتقُوا الله ربكُم ولا تُخرجوهُن من بيُوتهن لا يَخْرجْنَ إلا أن يأتينَ بفَاحِشةٍ مُبينةٍ وتلكَ حُدُودُ اللهِ وَمَنْ يَتَعَد حدودَ اللهِ فقد ظَلَمَ نفسه لا تدري لعل اللهَ يحدِثُ بعدَ ذلكَ أمراً**﴾(٢).

وقال تعالى: ﴿**الطلاقُ مَرتَانِ، فإمْسَاكٌ بمعروف أو تسريحٌ بإحْسَانٍ ولا يحِلُ لكُم أن تأخذوا مما آتَيتُمُوهُنَ شيئاً إلا أن يخافا ألا يُقيما حدود الله، فإنْ خِفْتُم ألا يقيما حدود اللهِ فلا جُنَاح عَلَيْهِما فيما افتَدَت بهِ، تلْكَ حُدُودُ اللهِ فلا تعتدوها**

(١) رواه أبو داود والحاكم.
(٢) سورة الطلاق/ ١.

ومن يَتعدَّ حدودَ الله فأولئك هم الظالمون. فإن طلقها فلا تحلُ له من بَعْدُ حتى تنكِحَ زوجاً غيرهُ. فإن طلقَهَا فلا جُناحَ عليهما أن يتراجَعَا إن ظنَا أنْ يُقيما حُدُودَ الله وتلكَ حُدودُ اللهِ يُبَينُها لقومٍ يَعْلَمُونَ﴾[1].

وعدة المطلقة التي يمكن فيها المراجعة بعد الطلقة الأولى والثانية هي ثلاث حيضات بعد الأولى وثلاث بعد الثانية كما جاء في قوله تعالى: ﴿والمطلقَاتُ يَتربصْنَ بأنفُسِهِن ثلاثةَ قُروءٍ ولا يحل لهن أن يَكْتُمنَ ما خَلقَ اللهُ في أرحامِهن إنْ كن يؤْمن باللهِ واليوم الآخرِ وبُعُولَتُهُن أحق بردهن في ذلكَ إنْ أرادُوا إصْلاحاً ولَهُن مِثْلُ الذي عليهن بالمعروفِ وللرجالِ عليهن دَرَجَة واللهُ عزيزٌ حَكيم﴾[2].

وهذه الفترة التي يمكن فيها المراجعة هي مجال للحل والصلح والعودة بعد الطلاق الأول والثاني، وإذا تكرر بعد ذلك النزاع ووقع الطلاق الثالث فلا رجعة إلاَّ بعد زواج المرأة من شخص آخر، قال تعالى: ﴿فإنْ طلَّقَها فلا تحل له من بعدُ حتى تنكحَ زوجاً غيرَه، فإنْ طلقَها فلا جُنَاح عليهما أنْ يتراجَعَا إنْ ظنا أَنْ يقيما حُدودَ الله وتلكَ حُدُودُ اللهِ يُبَينُها لقومٍ يَعْلَمُون﴾[3].

وإذا تم الطلاق والفراق فللأبناء نظام يكفل حقوقهم وتربيتهم، فللطفل حق الرعاية والرضاعة من أمه، قال تعالى: ﴿والوالِدَاتُ يُرضِعْنَ أوْلادَهُن حَولَيْنِ كاملين لمنْ أرادَ أن يُتم الرضَاعةَ وعلى المولودِ له رِزْقُهُن وكِسْوَتُهُن بالمعرُوف لا تكلفُ نَفْسٌ إلا وسْعَها لا تضار والدةٌ بوَلَدِها ولا مَوْلودٌ له بولدِهِ وعلى الوارثِ مِثْلُ ذلكَ فإنْ أرادا فِصالاً عن تراضٍ منْهُما وتَشاوُرٍ فلا جُناحَ عَليهما. وإنْ أرَدْتُم أن

(١) سورة البقرة/ ٢٢٩- ٢٣٠.
(٢) سورة البقرة/ ٢٢٨.
(٣) سورة البقرة/ ٢٣٠.

تَسْترضعوا أولادَكمُ فَلا جُنَاحَ عَلَيكُم إذا سَلمتُم ما آتيتُم بالمعروفِ واتقُوا اللهَ واعلموا أن اللهَ بما تَعْمَلُونَ بصيرٌ﴾[1].

وسألت أمرأة الرسول ﷺ طلقها زوجها، أن يظل ابنها في رعايتها، فقال لها ﷺ «أنت أحق به ما لم تنكحي»[2].

(١) سورة البقرة/ ٢٣٣ .
(٢) رواه أبو داود

obeikandl.com

حقوق الإنسان والرق في الإسلام

إن دولة الإسلام التي أقامها الرسول ﷺ دعت إلى تكريم الإنسان لا لكونه غنياً أو فقيراً، ولا لكونه شريفاً أو وضيعاً، ولا لأنه أبيض أو أسود، بل بكونه مسلماً، وقد بينت الآيات الكريمة هذه القاعدة تبياناً واضحاً فقال تعالى: ﴿يا أيُها الناسُ إنّا خَلَقْنَاكُم مِنْ ذكَرٍ وأُنْثَى وجَعَلْنَاكُم شُعُوباً وقبائِلَ لتعارَفُوا إنَّ أكْرَمَكُم عِنْدَ اللَّهِ أتْقَاكُمْ إنَّ اللَّهَ عَلِمٌ خَبِيرٌ﴾[1]، وهذا الدين الذي قامت عليه دولة الإسلام دين عالمي إلى الناس كافة لا يقتصر على فئة معينة من الناس، وهو دين الوحدانية المطلقة لله وحده لا شريك له[2].

والأصل في علاقات الناس ببعضهم التعاون والتعارف، وهم من أصل واحد قال تعالى: ﴿يا أيُها الناسُ اتقُوا ربَكُم الذي خلقَكُم من نفسٍ واحدةٍ وخَلَقَ منها زوجَها وبَثَ منهُمَا رجالاً كثيراً ونِسَاءً واتقُوا اللهَ الذي تساءَلُونَ به والأرحامَ إن اللهَ كان عَلَيكُم رَقِيباً﴾[3].

والأصل أن الناس متساوون أمام القضاء كما فعل الرسول ﷺ بالمرأة المخزومية حين أقام عليها الحد، وقال: «والله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها»[4].

---

(١) سورة الحجرات/ الآية١٣ .

(٢) انظر الآيات ١٠٧-١٠٩ سورة الانبياء.
سورة سبأ/ ٢٨ ، سورة الأعراف/ ١٥٨ .
سورة الفرقان/ ١ ، سورة القلم/ ٥٢ .
سورة التكوير/ ٧٢، سورة الإخلاص/ ١-٤ .

(٣) سورة النساء/ الآية١ .

(٤) ابن الجوزية، زاد المعاد ج٥/ ٥٠ .

والأصل أن يكون الإنسان حراً بالملكية الفردية، وحق الإنسان في سلامة عرضه وحياته وماله وعقيدته، وأن الإنسان بريء حتى تثبت إدانته. والأصل حماية الضعفاء وخاصة النساء واليتامى قال ﷺ: «استوصوا بالنساء خيراً». وقال تعالى في حق اليتامى والمحافظة على أموالهم: ﴿وآتُوا اليَتَامى أموالَهُم ولا تتبَدلُوا الخَبيثَ بالطيبِ ولا تأكلوا أموالَهم إلى أموالِكم إنَه كانَ حُوباً كبيرا﴾[1] وقال تعالى: ﴿إن الذينَ يأكلُون أمْوالَ اليتامَى إنما يأكُلُون في بطونِهم ناراً وسَيصْلونَ سَعيراً﴾[2].

وحافظ الدين على المال العام فقال تعالى: ﴿وَلا تُؤْتُوا السُفَهاءَ أَمْوالَكُم التي جَعَل اللهُ لكُم قِياماً وارزُقُوهم فيها واكسُوهم وقُولوا لهم قولاً معروفاً﴾[3].

وكرم الإسلام النفس الإنسانية وحرم الاعتداء عليها قال تعالى: ﴿ولا تقتلوا أنفسكم إنَ الله كانَ بكُم رحيماً﴾[4].

وقال تعالى: ﴿مِنْ أجْلِ ذَلكَ كَتَبْنَا على بني إسْرائيلَ أنه مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيرِ نَفْسٍ أو فَسَادٍ في الأرضِ فَكأنما قَتَلَ الناسَ جَميعاً ومن أحياها فكأنما أحيَا الناسَ جميعاً..﴾[5].

ومنع الإسلام الإفساد في الأرض وحذر المفسدين بأسوأ العواقب فقال تعالى: ﴿إنما جَزَاءُ الذينَ يُحارِبُون اللهَ ورسولَه وَيَسْعَوْنَ في الأرضِ فَسَاداً أن يُقتلُوا

(١) سورة النساء/ الآية٢.
(٢) سورةالنساء/ الآية ١٠.
(٣) سورة النساء/ الآية ٥.
(٤) سورة النساء/ ٢٩.
(٥) سورة المائدة/ ٣٢، انظر: سورة النساء الآية/ ٩٢-٩٣.

أوْ يُصَلَّبوا أو تقطَّعَ أيديهم وأرْجُلُهم مِنْ خِلافٍ أوْ يُنْفوا مِنَ الأرْضِ ذلكَ لهم خِزْيٌ في الدُنيَا ولَهُم في الآخرةِ عَذَابٌ عَظيمٌ﴾[1].

والناس أحرار يتعاملون بالإخاء والمساواة كما قال الرسول ﷺ: «لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى».

وقد طبق الرسول ﷺ هذا المبدأ فقال: «سلمان منا أهل البيت» وعندما عين الرسول ﷺ قادة غزوة مؤته جعل أحدهم زيد بن حارثة وهو مولى، وعين ابنه أسامة بعد ذلك على جيش من وجوه المهاجرين والأنصار.

وأوضح الإسلام بأن كل إنسان مسؤول عن عمله ولا يتحمل غيره العقاب عنه قال تعالى: ﴿وكُلَّ إنْسَانٍ ألْزَمْنَاه طَائِرَهُ في عُنُقِه ونُخْرِجُ لَهُ يَومَ القِيَامةِ كِتَاباً يَلقاه منشوراً. من اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومَنْ ضَلَّ فإنما يَضِلُّ عَلَيْها ولا تَزِرُ وَازِرةٌ وِزْرَ أخرى وما كنا مُعذبينَ حتى نبعَثَ رسولاً﴾[2].

ومنع الإسلام ظلم العامل قال ﷺ: «أعطوا الأجير أجره قبل أن يجف عرقه».

ولكل إنسان حريته إلا إذا أضرت حرية الفرد بالآخرين، وشجع الإسلام على مساعدة الفقراء والمساكين وجعل لهم حقاً في مال الغني. قال تعالى: ﴿والذينَ في أمْوالِهم حَقٌّ مَعلومٌ للسائلِ والمحرُومِ﴾[3].

وقد ضمن الإسلام سعادة الأسرة وبين حقوق كل فرد من أفرادها بما يكفل سعادتها واستمرار حياتها وتكوينها، كما جعل مبدأ المساواة في العبادات

(١) سورة المائدة/ ٣٣.
(٢) سورة الإسراء/ ١٣-١٤.
(٣) سورة المعارج/ ٢٤ - ٢٥.

كالصلاة والصيام وفرض الزكاة والحج على القادرين على أدائهما. ولا إكراه في الدين قال تعالى: ﴿ولو شاءَ ربكَ لآمنَ مَنْ في الأرض كلهم جميعاً أفأنتَ تكرهُ الناسَ حتى يكونوا مؤمنين﴾[1] وقال تعالى: ﴿لاإكراهَ في الدينِ قد تبينَ الرشدُ من الغيِّ فمن يكفرْ بالطاغوتِ ويؤمنْ باللهِ فقد استَمْسَكَ بالعُروةِ الوُثْقَى لا انفصامَ لَهَا واللهُ سَمِيعٌ عليمٌ﴾[2].

وتاريخ المسلمين مليء بالتسامح الديني مع أصحاب الديانات الأخرى وخاصة مع أهل الذمة الذين ظلوا على دياناتهم في الدولة الإسلامية وفي علاقات المسلمين بالدول الأخرى.

ووحد الإسلام مشاعر المسلمين كافة قال ﷺ: «**مثل المؤمنين في توادِهم وتراحمهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى**» وقال ﷺ: «**المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه ولا يحقره، بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه**».

وقد جعل الإسلام التفاضل بين الناس بحسب أعمالهم، ففضل المجاهدين على القاعدين، وفضل المؤمنين على الكافرين، وفضل العاملين على غير العاملين[3].

وأن أحكام الإسلام تشمل جميع الناس دون محاباة، وأعفى الناس من مسؤولياتهم إذا لم يتمكنوا من شروط التكليف. قال تعالى: ﴿ليسَ على الأعمَى حرجٌ، ولا على الأعْرج حرجٌ ولا على المريض حرجٌ...﴾[4].

وقال ﷺ: «**وضع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه**».

---

(١) سورة يونس/ ٩٩.

(٢) سورة البقرة/ الآية ٢٥٦.

(٣) انظر: سورة الحجرات، سورة الزخرف/ ٣٢، سورة النساء٣٠٢، ٢٠-٢١، ٩٥، سورة الزمر٩.

(٤) سورة الفتح/ ١٧ وانظر: سورة البقرة ١٨٣-١٨٤، سورة النساء/ ١٠١، سورة المائدة/ ٦، سورة النور/ ٦٠.

وأما الرق. فإن الإسلام لم يستخدمه ولكنه وضع علاجاً له وكان موجوداً قبل الإسلام عند الأمم المختلفة، ولم يلغ الإسلام الرق وإنما ظل على أساس المعاملة بالمثل حتى لا يفضل غير المسلمين على المسلمين في حالة الوقوع في الأسر، ومع هذا فقد شجع الدين الإسلامي على تحرير الأرقاء ورفع مستواهم ومعاملتهم معاملة كريمة، وفتح لهم أبواب التحرير على مصاريعها حتى غدا من الأرقاء في الدولة الإسلامية الحكام والقادة والوزراء والكتاب.

وفي معاملة الرقيق معاملة كريمة قال تعالى: ﴿واعبُدوا اللهَ ولا تُشْرِكُوا به شيئاً وبالوالدينِ إحْسَاناً وبذي القُربى واليَتامَى والمساكينِ والجارِ ذِي القُربَى والجارِ الجُنُبِ والصاحبِ بالجنْبِ وابن السبيلِ وما مَلكت أيْمانُكُم إن الله لا يُحبُ مَنْ كانَ مختالاً فخوراً﴾(١).

ونهى الرسول ﷺ أن ينادى على الرقيق ما يحقره فقال ﷺ: «لا يقل أحدكم عبدي أو أمتي وليقل فتايَ وفتاتي وغلامي».

وقال ﷺ: «إخوانكم خولكم، جعلهم الله تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل وليلبسه مما يلبس ولا تكلفوهم ما يغلبهم؛ فإن كلفتموهم فأعينوهم»(٢).

وحرم الرسول ﷺ ضرب الرقيق فقال: «من لطم مملوكه أو ضربه فكفارته عتقه».

وأجاز الإسلام الزواج من الرقيقات، فأصبح منهن حكاماً وقادة وأمهات الخلفاء.

(١) سورة النساء/ الآية٣٦.
(٢) صحيح مسلم م٥/ ٩٣.

وشجع القرآن على تحرير الأرقاء فقال تعالى: ﴿فَلا اقتحمَ العقَبةَ، وما أدْرَاكَ ما العَقَبَةُ، فَكُّ رَقَبَةٍ﴾(١).

وجعل كفارة القتل عتق رقبه قال تعالى: ﴿وما كان لمؤمنٍ أن يَقْتُلَ مؤمناً إلا خطئاً ومن قتل مؤمناً خطئاً فتحرير رقبةٍ مؤمنةٍ وَدِيَةٌ مُسَلمَةٌ إلى أهلهِ... ومنْ يَقتُلْ مؤمناً متعمداً فجزاؤه جَهَنمُ خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذاباً عَظيماً﴾(٢).

وجعل كفارة الحنث في اليمين عتق رقبه قال تعالى: ﴿فكفارتُه إطعَامُ عشرةِ مساكينَ مِنْ أوسطِ ما تطعمونَ أهليكم أوْكِسْوَتُهم أو تحريرُ رَقَبة﴾(٣).

وهو كفارة للظهار قال تعالى: ﴿والذين يظاهرونَ مِنْ نِسَائِهم ثم يَعُودونَ لما قَالُوا فتحريرُ رقبةٍ مِنْ قبلِ أنْ يتَمَاسَّا﴾(٤).

وجعل للأرقاء نصيب من مال الصدقات والزكاة لمساعدتهم على تحرير أنفسهم قال تعالى: ﴿إنما الصدقاتُ للفُقَراء والمساكين والعاملينَ عليها والمؤلفةُ قلوبُهُم وفي الرقابِ والغَارِمِينَ وفي سبيل اللهِ وابنِ السبيلِ فريضةٌ من اللهِ واللهُ عليمٌ حكيم﴾(٥).

---

(١) سورة البلد/ ١١- ١٣.
(٢) سورة النساء/ ٩٢ - ٩٣.
(٣) سورة المائدة/ ٨٩.
(٤) سورة المجادلة/ ٣.
(٥) سورة التوبة/ ٦٠.

النظام المالي في الدولة الإسلامية

وهو الذي أطلق عليه في بداية تكوينه بيت مال المسلمين بما يوازي وزارة المالية في وقتنا الحاضر، ويتعلق بواردات الدولة ومصاريفها.

وقد تطور نظام بيت المال الإسلامي في دخله وصرفه من عهد الرسول ﷺ في المدينة المنورة إلى العصور اللاحقة بسبب الاتساع وظهور النظم المختلفة، فشملت الواردات الغنائم والفيء والزكاة والجزية والخراج والعشور.

أولاً: الزكاة:

وهي حق معلوم يدفعه الغني من ماله إلى الفقير إذا بلغ مال الغني نصابه الشرعي وحال عليه الحول.

حكمها: فريضة واجبة وهي أحد الأركان الخمسة في الإسلام.

أدلة وجوبها: اقترنت الزكاة مع الصلاة في اثنين وثمانين موضعاً في القرآن الكريم، ومن هذه الآيات قوله تعالى: ﴿**إن الذينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصالحَاتِ وأقَامُوا الصلاةَ وآتَوُا الزكَاةَ لهم أجْرُهُم عِندَ ربهم ولا خَوْفٌ عَلَيْهِم وَلا هُم يَحْزَنونَ**﴾[1].

وقوله تعالى: ﴿**وأقِيمُوا الصلاةَ وآتُوا الزكَاةَ واركَعُوا مع الراكعِين**﴾[2].

---

(١) سورة البقرة/ ٢٧٧.

(٢) سورة البقرة/ ٤٣.

وانظر: الآيات في سورة البقرة/ ٣٨ والآية/ ١١٠ وسورة الحج/ ٧٨ وسورة النور/ ٥٦ وسورة المجادلة/ ١٣ وسورة المزمل/ ٣٠، سورة التوبه/ ١٠٣، الروم/ ٣٩، المعارج/ ٢٤-٢٥.

وأكد الرسول ﷺ على وجوبها فأخذها من الأغنياء ووزعها على مستحقيها، قال ﷺ لمعاذ بن جبل حين بعثه قاضياً إلى اليمن: «**ادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله، فإن أطاعوك لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم وترد إلى فقرائهم، فإن أطاعوك لذلك فإياك وكرائم أموالهم، واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب**»[1] وقال ﷺ: «**بني الإسلام على خمس، شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وحج البيت وصوم رمضان**»[2]. وقال ﷺ: «**ويل للأغنياء من الفقراء يوم القيامة، يقولون، ربنا ظلمونا حقوقنا التي فرضت لنا عليهم فيقول الله عز وجل: وعزتي وجلالي لأدنينكم ولأبعدنهم**» وتلا الرسول ﷺ الآية: ﴿**والذينَ في أمْوالِهم حَقٌّ مَعلومٌ للسائلِ والمحرُومِ**﴾[3].

وقد حارب أبو بكر الصديق رضي الله عنه في خلافته، المرتدين حين رفضوا أن يدفعوا الزكاة، وقال قولته المشهورة: «**والله لا أفرق بين الزكاة والصلاة، والله لو منعوني عقالاً كانوا يؤدونه إلى الرسول ﷺ لحاربتهم دونه**».

أداؤها: تؤدى الزكاة في أوقاتها حتى لا تكون عبئاً ثقيلاً على مؤديها.

فهي في الثمار عند جنيها بعد نضجها قال تعالى: ﴿... **وآتُوا حَقهُ يَومَ حَصَادِهِ**﴾[4].

وتؤدى زكاة المال مرة واحدة في السنة عند بلوغه النصاب الشرعي، وحولان الحول عليه وهي نسبة ثابته مقدارها ٢,٥٪، وهي بنسبة تصاعدية على الأنعام في

(١) صحيح مسلم م١/ ٣٧- ٣٨.
(٢) صحيح مسلم م١/ ٣٤.
(٣) سورة المعارج/ ٢٤- ٢٥.
(٤) سورة الأنعام/ ١٤١.

كل سنة مرة، وهي بنسبة معينة على الزروع تقل أو تزيد حسب نوع الري. فإن كان ريه من الأمطار فنسبته العشر، وإن كان يسقى بالآلة والأجر فنسبته نصف العشر. وهكذا عروض التجارة يقوم صاحبها بتقييمها في كل سنة مرة، ويدفع عنها زكاتها ٢,٥٪.

مصاريفها: مأخوذة من قوله تعالى: ﴿**إنما الصدقاتُ للفُقَراء**[١] **والمساكين**[٢] **والعاملينَ عليها**[٣] **والمؤلفةُ قلوبُهُم**[٤] **وفي الرقابِ**[٥] **والغَارِمِينَ**[٦] **وفي سبيل اللهِ**[٧] **وابنِ السبيلِ**[٨] **فريضةٌ من اللهِ واللهُ عليمٌ حكيم**﴾[٩].

فائدة الزكاة في المجتمع الإسلامي:

١- تقلل حدة التفاوت بين الأغنياء والفقراء.

٢- تحصيل ثواب الله ورضاه، فينام الأغنياء قريري العين هادئي البال عند تأديتهم لواجبهم.

٣- ينام الغني مطمئناً من عدم حقد وحسد الفقراء عليه طالما أنه يقوم بتأدية واجبه ناحيتهم، فيحل الوئام بين أفراد المجتمع بدل الحقد والضغينة.

٤- مساعدة الذين يقعون تحت طائلة الديون وعجزوا عن سدادها.

٥- مساعدة طلبة العلم.

---

(١) الفقراء: الذين لا شيء لديهم ينفقونه على أنفسهم.
(٢) المساكين: الذين تمكن منهم الفقر وهم أسوأ حالاً من الفقراء.
(٣) العاملون عليها: الذين يجمعونها دون راتب، يأخذون منها بلا إسراف ولا تقتير.
(٤) المؤلفة قلوبهم: الذين يدخلون الإسلام يأخذون نصيباً منها لترغيبهم في الإسلام.
(٥) الرقاب: الرقيق الذين لا يستطيعون فكاك أنفسهم فيعانون على ذلك من مال الزكاة.
(٦) الغارمون: الذين لا يستطيعون سداد ديونهم.
(٧) سبيل الله: الغزاة المجاهدون.
(٨) ابن السبيل: المسافر المنقطع عن العودة إلى أهله.
(٩) سورة التوبة/ ٦٠.

٦- تحرير العبيد، فيتحولون إلى عنصر بناء في المجتمع الإسلامي، مثلهم مثل سائر إخوانهم.

٧- تقوية الجيش الإسلامي بالإنفاق من مال الزكاة على المجاهدين في التسليح أو الإنفاق على ذويهم وأهليهم.

٨- مساعدة الذين انقطعت بهم السبل، فيعودون إلى بلادهم وأهليهم فتقوى روابط المسلمين بعضهم ببعض.

ثانياً: الجزية:

وهي المصدر الثاني من مصادر بيت مال المسلمين.

وهي ما فرض من مال على رؤوس أهل الذمة الذين أصبحوا في حوزة المسلمين من أهل الكتاب والمجوس ما خلا نصارى تغلب ونجران[١].

حكمها: فرض عين على كل ذمي يعيش بين المسلمين، وأطلق عليهم أهل الذمة لأنهم أصبحوا في ذمة المسلمين لحمايتهم فأصبحوا آمنين على أرواحهم وأموالهم وأعراضهم، فيدفعون الجزية بما يعادل الزكاة التي يدفعها المسلم. وتؤخذ منهم وقت الغلة تخفيفاً عليهم وللرفق بهم[٢].

دليل مشروعيتها: قوله تعالى: ﴿**قَاتِلُوا الذينَ لا يُؤْمِنُونَ بالله ولا باليومِ الآخِرِ ولا يحَرمونَ ما حرمَ اللهُ ورَسُولُه ولا يَدينونَ دِينَ الحَقِ من الذِينَ أوتُوا الكتَابَ حتى يُؤْتُوا الجِزْيَةَ عن يدٍ وهم صاغِرونَ**﴾[٣].

---

(١) أبو يوسف، كتاب الخراج/ ٧٠.
(٢) أبو عبيد، الأموال/ ٥٦ وما بعدها.
(٣) سورة التوبة/ ٢٩.

وقال ﷺ : «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فمن قال لا إله إلا الله عصم مني نفسه وماله إلا بحقه وحسابه على الله» .

وأرسل الرسول ﷺ إلى حكام عصره وشرح لهم دعوة الإسلام وما تقوم عليها من وحدانية الله ونبوة محمد والقرآن الذي ينزل عليه من الله بواسطة الوحي، وخيَّرهم بين الإيمان بذلك أو دفع الجزية أو الحرب[1] .

وقد أخذ الرسول ﷺ الجزية من اليهود والنصارى من أهل اليمن ومن صاحب أيلة ومن صاحب دومة الجندل أكيدر بن عبدالملك[2]، وأخذها بعده الخليفة أبو بكر الصديق رضي الله عنه والخليفة عمر بن الخطاب، حيث قدرها الخليفة عمر على الأغنياء بثمان وأربعين درهماً وأربعة وعشرين على متوسطي الحال وعلى من هم دون ذلك اثني عشر درهماً، ولم يأخذها من النساء والضعفاء والصغار[3] .

ثالثاً: الغنائم:

وهي ما يأخذه المسلمون من عدوهم على وجه القهر والغلبة من متاع وسلاح وكراع[4] . وبينتها الآيات الكريمة في قوله تعالى : ﴿ **واعلَمُوا أَنما غَنِمْتُم من شئٍ فإن للهِ خُمسَهُ وللرسُولِ ولذِي القُرْبَى واليتَامى والمساكين وابن السبيلِ إن كُنتُم آمنتُم**

(١) انظر : محمد حميد الله، الوثائق السياسية مراسلاته ﷺ لحكام عصره/ ١٢٤ وما بعدها.
أبو عبيد، الأموال/ ٢٠ .
البلاذري، فتوح البلدان/ ٦٦ .
(٢) ابن هشام، السيرة النبوية.
(٣) أبو يوسف، كتاب الخراج/ ٣٨، ٧٠ أبو عبيد، الأموال/ ٣٩ .
الماوردي، الأحكام السلطانية/ ١٢٨ .
(٤) هي الدواب.

باللهِ وما أَنْزَلْنَا على عبدِنا يومَ الفرقانِ يومَ التقى الجمعانِ والله على كل شئٍ قديرٍ﴾[1].

وقد أسفرت غزوات المسلمين في حياة الرسول ﷺ مع المشركين عن غنائم استولى عليها المسلمون فقسمها الرسول ﷺ كما بينتها الآيات بأن يوزع خمسها على الأصناف الخمسة التي بينتها الآية ١٤ من سورة الأنفال، والأربعة أخماس الباقية على المشاركين في الغزو من المسلمين[2]، ومارس قسمتها الخلفاء الراشدون رضي الله عنهم بعد ذلك[3].

رابعاً: الفيء:

وهو ما أخذه المسلمون من المشركين دون قتال، كما هو في الآية الكريمة: ﴿**مَا أَفَاءَ اللهُ عَلَىَ رَسُولِه من أَهلِ القُرى فللهِ وللرسُولِ ولذِي القُربى واليَتامَى والمساكينِ وابنِ السبيلِ كي لا يكونَ دُولةً بين الأغنياءِ مِنْكم وما آتاكم الرسولُ فخُذُوه وما نهاكُم عنه فانتهوا واتقوا اللهَ إن اللهَ شديدُ العقاب**﴾[4]. وقد رأى الفقهاء أن يقسم الفيء كما تقسم الغنيمة.

---

(١) سورة الأنفال/ ٤١، وانظر: آيات أخرى في سورة الأنفال.
(٢) انظر: أبو يوسف كتاب الخراج/ ١٩.
أبو عبيد كتاب الأموال/ ٣٨٨.
الماوردي، الأحكام السلطانية/ ١٢٥.
(٣) محمد مرعي، النظم المالية/ ١٠٧.
(٤) سورة الحشر/ ٧.
انظر: الشافعي، الأم ج٤/ ٦٤.
أبو يوسف، كتاب الخراج/ ٢٥.
ابن آدم القرشي، الخراج/ ١٧.
الماوردي، الأحكام السلطانية/ ١٢١.

خامساً: الخراج:

وهو مقدار معين من المحاصيل الزراعية التي يدفعها صاحب الأرض الذمي لبيت مال المسلمين من الأرض التي فتحها المسلمون عنوة مقابل أن تبقى هذه الأرض بيد أصحابها، وهي التي جرى عليها الحكم من البلاد التي فتحت في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه خارج الجزيرة العربية[1].

وقد راعى الشارع مصلحة الذمي في أرضه، وإن كانت قريبة من الماء أو بعيدة عنه وسهولة الري أو صعوبته، وإن كانت تسقى بماء المطر أو من النهر أو الري، وقد صنفت الأرض التي استولى عليها المسلمون على أصناف، إن بقي أهلها عليها فهي أرض خراج، وإن مات أهلها أثناء حربهم للمسلمين أو تركوها وانضموا إلى العدو فهي أرض غنيمة، وإن أسلم أهلها عليها بعد الحرب فهي أرض عشرية[2].

سادساً: العشور:

والعشور نوعان:

الأول: ما يدفعه المحارب الذي يتاجر في أرض المسلمين، ويؤخذ نصف العشر من الذمي الذي يدفع الجزية، وربع العشر من التاجر المسلم الذي يدفع زكاة ماله، وقد فرض الخليفة عمر العشر على التاجر المحارب الذي يدخل بلاد

---

(١) أبو يوسف، كتاب الخراج/ ٣٥.
أبو عبيد، كتاب الأموال/ ٩٧.
الماوردي، الأحكام السلطانية/ ١٤٦.

(٢) أبو يوسف، كتاب الخراج/ ٢٥.
أبو عبيد، كتاب الأموال/ ٩٧.

المسلمين حين سأل أبو موسى الأشعري الخليفة عمر عن تجار أهل الحرب يأتون إلى ديار الإسلام للتجارة، وأنهم يأخذون من تجار المسلمين العشر فرد عليه الخليفة: «خذ أنت منهم كما يأخذون من تجار المسلمين، ومن أهل الذمة نصف العشر، ومن المسلمين ربع العشر، ومن كل أربعين درهماً درهماً، وليس فيما دون المائتين شيء، فإذا كانت مائتين ففيها خمسة دراهم، وما زاد فبحسابه»[1].

الثاني: الأرض العشرية. وهي التي يدفع عنها صاحبها عشر نتاجها، وهو المسلم الذي أسلم على أرضه بعد الفتح من العجم، أو الأراضي التي مات عليها أصحابها وهم يحاربون المسلمين ووزعت على المسلمين من الأرض الكسروية، أو الأرض التي تركها أهلها وانضموا إلى العدو[2]. وقد أسقط الخليفة عمر بن عبدالعزيز هذا العشر عن الأرض التي أسلم عليها أصحابها وكتب إلى عماله بذلك[3].

(١) أبو يوسف، كتاب الخراج/ ١٤٥ - ١٤٦.
(٢) أبو يوسف، كتاب الخراج/ ٦٩.
(٣) الطبري، تاريخ الرسل والملوك ج٦/ ٥٥٩.